

# "في اللاشعور"

## سيجموند فرويد 1915

ترجمة

السيد البدوي فتحي صديق

في الخامس من شهر مارس 2023

علمنا التحليل النفسي أن جوهر عملية الكبت لا يكمن في الغاء التمثيل التصوري (الفكري) للغريزة أو إبادته، وإنما يكمن في منعه من أن يصبح شعوريا. وفي هذه الحالة نقول عن الفكرة أنها في حالة "لاشعورية"، حيث لا تمثيل لها في العقل الشعوري، وبإمكاننا أن نقدم أدلة مقنعة لتبيان أن هذه الفكرة، وقد أصبحت لاشعورية، يمكنها أن تُحدث (تمارس) أيضًا تأثيراتها، حتى من النوع الذي فيه تخترق هذه التأثيرات في النهاية الي الشعور. إن كل ما يُكبت يظل لا شعوريا؛ ولكن دعونا نقول ومنذ البدء أن المكبوت لا يشكل كل اللاشعور. إن للاشعور نطاق أوسع: وما يمثل المكبوت الا جزءا من اللاشعور.

كيف لنا أن نبلغ الي معرفة اللاشعور؟ بطبيعة الحال لا يمكننا أن نعرف عنه شيئا الا كشيء شعوري، أي إلا بعد أن يخضع الي ضرب من الترجمة أو التحول إلى شيء شعوري. وإمكانية مثل هذه الترجمة هي مسألة خبرة يومية في عمل التحليل النفسي وممارسته. ومن أجل تحقيق ذلك، من الضروري أن يتغلب الشخص، الذي يتم تحليله، على مقاومات بعينها؛ مقاومات هي نفسها كتلك المقاومات التي قد جعلت المادة، التي نحن بصددھا، في مرحلة زمنية سابقة، قيد الكبت بعد أن تم رفضها من قبل الشعور.

## 1- تبرير طرح تصور اللاشعور

في العديد من الأوساط تُطرح خلافات عدة حول تبريرنا من وراء طرح فرضية وجود نسق لاشعوري في العقل (النفوس)، وحول مدي إمكانية استخدام مثل هذا الفرضية لأغراض العمل العلمي. بشأن هذه الفرضية، بوسعنا أن نرد على ذلك بأن فرضيتنا حول وجود نسق لاشعوري لھي فرضية جد ضرورية ومشروعة؛ وأن لدينا العديد من الأدلة والبراهين على وجود النسق اللاشعوري. وهذا يعد ضروريا لأن ما يُنشر من معطيات بشأن الشعور تعد ناقصة غير كافية ومعيبة الي أبعد حد؛ وأن هناك، لدى الأشخاص الأصحاء والمرضى على حد سواء، العديد من الأفعال والانشطة العقلية (النفسية) التي تمارس فعلھا ولا سبيل الي تفسيرھا ولا الي شرحھا غالبا إلا من خلال طرح فرضية مسبقة تتعلق بوجود أفعال وأنشطة اخري؛ أفعالا وأنشطة أخري لا تتمتع بشهادة الشعور ولا يمكن للشعور أي يقدم أي دليل عليها. وهذه الأفعال والأنشطة الأخرى تضم ليس فحسب الهفوات والاحلام لدي الأشخاص الاسوياء، وإنما كل ما يُعتبر عرضاً مرضيا عقليا أو وسواسيا (حوازا) لدى الأشخاص المرضى؛ لقد قدمت لنا خبرتنا اليومية الأكثر حميمية العديد من الرؤى والأفكار المدهشة حول مصدر جهلنا، وأفضت الي نتائج ارشاديه وأنشطة عقليه نحن لا نعرف كيف. تظل جميع الأفعال والأنشطة الشعورية غير متماسكة وغير مفهومة منطقيا إذا ما صرنا مصممين على التمسك بالادعاء بأن علينا أن ندرك بالوعي كل ما يحدث داخلنا من نشاط

عقلي ويجب أن نعيشه ونخبره شعورياً؛ ومن ناحية أخرى، فإنه يمكننا أن نرى أن كل هذه الأنشطة تنتظم في علاقة ما يمكن إثباتها وإقامة البرهنة على تماسكها وتلاحمها منطقياً إذا أستلحقنا بها الأفعال اللاشعورية التي نستنتجها. ومع ذلك، فإننا نجد في المعنى وفي هذا الترابط المنطقي الذي بلغناه دافعا له ما يبرره تماماً؛ دافعا قد يحملنا الي حد كبير إلى الماضي قدما الي ما وراء حدود التجربة والخبرة المباشرة. وعندها يبدو، بعد ذلك، أن فرضية اللاشعور تساعدنا على بناء وتشديد منهاجاً عملياً ناجحاً للغاية؛ منهاجاً يُمكننا من خلاله أن نمارس تأثيراً مفيداً على مسار العمليات الشعورية. وهذا النجاح سوف يُكسبنا دليلاً لا جدال فيه بشأن وجود فرضيتنا التي افترضناها. وبعد ذلك، يكون علينا أن نتخذ الموقف القائل بأنه من غير المقبول الافتراض والادعاء، معا وعلى حد سواء أن يكون كل ما يدور وما يحدث في العقل يكون معروفاً للوعي.

ودعماً للحالة العقلية اللاشعورية، يمكننا أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك وندّعي مؤكدين أن الوعي (الشعور) لا يحتضن إلا محتوى صغيراً فقط للغاية في أي لحظة بعينها، بحيث يكون الجزء الأكبر مما نسميه المعرفة الشعورية قائماً موجوداً، بالضرورة ولفترات معتبرة جداً من الزمن، في حالة من الكمون؛ أي يمكن القول في حالة لاشعورية؛ في حالة لا يمكن للعقل أن يمسك بها. وعندما يتم أخذ كل ذكرياتنا الكامنة في الاعتبار، يصبح من غير المفهوم تماماً كيف يمكن لنا إنكار وجود اللاشعور. ثم نواجه عندئذ اعتراضاً مفاده أن مثل هذه الذكريات الكامنة لم يعد من الممكن وصفها، في هذه الحالة، بأنها عمليات عقلية، بل يمكن القول انها تماثل بقايا عمليات جسدية يمكن من خلالها استنتاج شيء ما عقلي مرة أخرى. هنا يجب أن تكون الإجابة الواضحة على هذا القول هي أن الذاكرة الكامنة إنما هي، بلا أدنى شك وعلى العكس من ذلك، بقية باقية من بقايا عملية عقلية (نفسية). لكن الأهم من ذلك علينا أن نوضح لأذهاننا ونذكر تماماً أن هذا الاعتراض يقوم على تعيين وتماثل- هو ليس بالمقرر المعلن صراحة ولكن يتم اعتباره بديهياً، وهذا أمراً صحيحاً- الوعي والعقل (الشعوري والنفسي) معا وتطابقهما. إن هذا التعيين والتماثل هو إما ضرباً من المصادرة على المطلوب لا يترك مجالاً للشك أو أن يكون قائماً على مبدأ أولياً يثير تساؤلاً عما إذا كان كل ما هو ذهني هو وبالضرورة أيضاً شعوري، أم أن المسألة هي مسألة اصطلاحية، مسألة اتفافية. وفي هذه الحالة الأخيرة، مثلها مثل أي اتفاق، لا يبقى من الأمر، بطبيعة الحال، أكثر من الدحض. ولكن السؤال الوحيد الذي يبقى قائماً ومفتوحاً يدور حول ما إذا كانت المماثلة الاتفافية مفيدة لنا للغاية، الي الحد الذي يجعلنا نتبناها ونحتضنها. وعلى هذا قد نرد ونجيب بأن التعيين والمماثلة الاتفافية بين ما هو عقلي وما هو شعوري أمر غير عملي على الإطلاق. إنها تكسر وتحطم كل استمرارية عقلية وتغرقنا في صعوبات مستغلقه غير قابلة للحل وملازمة للنظرية التي تماثل بين ما هو نفسي وما هو فيزيائي، وتعرض نفسها بنفسها للوم، بدون أي أسباب واضحة، على المغالاة والمبالغة في تقدير الدور الذي يلعبه الشعور؛ وأخيراً تجبرنا، مبكراً وقبل الأوان، على التقاعد وترك مجال البحث النفسي دون أن نكون قادرين على بلوغ أي تعويضات لنا في مكان آخر.

وعلى أي حال، فإن من الواضح أن مثل هذا الاستشكال حول ما إذا كانت الحالات الكامنة للحياة العقلية، التي لا يمكن إنكار وجودها، ينبغي اعتبارها حالات عقلية لاشعورية أو حالات جسدية- يهدد بالتدهور والنزول إلى حرب كلامية لا تغني ولا تثمن من جوع. لذلك، فإن من الأفضل لنا أن نسلط الضوء على

كل ما نعرفه بيقين وثقة بشأن طبيعة هذه الحالات القابلة للنقاش والتي يثار حولها الجدل. والآن، وفيما يتعلق بخصائصها الفيزيائية، فإنه ليس في متناول يدنا ولا يمكننا الوصول لاي تصور فسيولوجي ولا أي تصور لعملية كيميائية يمكن أن تعطينا أي فكرة عن طبيعتها. ومن ناحية أخرى، فإن من المؤكد اننا نعلم أن لهذه الحالات نقاط اتصال وفيرة مع العمليات العقلية الواعية (الشعورية). إن الامر يستلزم الخضوع لمنهج بعينه من العمل الإجرائي بحيث يمكننا تحويلها أو استبدالها بعمليات واعية (شعورية)، وأن نطبق عليها جميع المقولات التي نستخدمها لوصف الأفعال العقلية الواعية (الشعورية)، مثل الأفكار والتصورات والأغراض والميول والقرارات وما إلى ذلك. وفي الواقع، من بين العديد من هذه الحالات الكامنة، نحن حريصون على التأكيد على أن النقطة الوحيدة التي تختلف فيها هذه الحالات اللاشعورية عن الحالات الشعورية تتمثل فقط في نقصان (غياب) الوعي بها. لذلك يجب ألا نتردد في معاملتها كموضوعات للبحث السيكولوجي، وفي إقامة صلة وثيقة للغاية مع الأفعال العقلية الواعية (الشعورية).

قد يُعزى الإنكار الشديد للخصائص العقلية للعمليات العقلية الكامنة إلى الظروف التي لم تكن فيها معظم الظواهر المعنية موضوعاً للدراسة خارج مجال التحليل النفسي. إن أي شخص ليس على دراية ويجهل حقائق علم الأمراض (الباثولوجي) ويرى أن أخطاء الناس العاديين عرضية ويقتنع بالنظرة القديمة القائلة بأن الأحلام شيء تافه (اضغاث)، فإن الأمر لا يحتاج منه إلا أن يتجاهل بعض المشاكل الأخرى في سيكولوجية الشعور ويضرب بها عرض الحائط حتى يتسنى له الاستغناء عن فرضية وجود نشاط عقلي لاشعوري. وعلى كل، وكما قد حدث، قد أثبتت تجارب التنويم المغناطيسي، وخاصة احياءات ما بعد التنويم المغناطيسي، بشكل ملموس، حتى قبل زمن التحليل النفسي، وجود اللاشعور في العقل وطريقة عمله.

علاوة على ذلك، فإن فرضية اللاشعور هي، من ناحية أخرى، فرضية مشروعة تمامًا، طالما إننا في طرحها لا ننحرف ولو قيد أنملة عن طريقة تفكيرنا المعتادة والمقبولة. وعن طريق وساطة الوعي يصبح كل واحد منا لا يعي الا حالاته الذهنية (النفسية) الخاصة به؛ إن امتلاك إنسان آخر للوعي هو مجرد استنتاج مأخوذ بفعل القياس من الأقوال والأفعال التي ندرك إنه يفعلها، وإن هذا الاستنتاج هو ليس الا مجرد استنتاج اشتقاقي حتى يصبح سلوكه هذا مفهوم لنا. (ربما يكون من الأصح من الناحية النفسية أن نضع الأمر على هذا النحو: نحن ننسب، بدون أي تأمل بعينه، إلى كل كائن آخر غيرنا تكويننا الخاص وجبلتنا وبالتالي وعينا الشعوري أيضًا، وأن هذا التعيين (التوحد) هو شرط ضروري فينا للفهم). إن هذا الاستنتاج- أو هذا التعيين- قد تم تمديده فيما سبق من قِبل الانا وسحبة على البشر الآخرين والحيوانات والنباتات والمادة الجامدة والعالم بأسره، وأثبت فائدته طالما أن التعيين مع الأنا الفردية كان عظيمًا بشكل ساحق؛ لكنه أصبح غير جدير بالثقة بدرجة أكبر بما يتناسب مع اتساع الهوية بين الانا واللا- انا. اليوم، يعتبر حكمنا مشكوك فيه بالفعل بشأن مسألة الوعي عند الحيوانات. نحن نرفض قبوله في النباتات وننزل إلى التصوف بافتراض وجوده في المادة الجامدة (التي لا حياة فيها). ولكن حتى في حالة استمرار الميل الأصلي للتعيين مع الامتحان النقدي مكللا بالفوز- أي عندما يكون اللا- أنا هو زميلنا البشري والاقرب إلينا- فإن فرضية وجود الوعي فيه تستند الي الاستدلال دون أن تحيط بها هالة المشاركة في اليقين المباشر الذي يساورنا بصدد وعينا أو شعورنا الخاص بنا.

الأُن لا يتطلب التحليل النفسي منا أكثر من أنه يجب تطبيق طريقة الاستدلال هذه علينا أنفسنا أيضاً- وهو مقياس صحيح، وإن لم نكن معه منضبطين دستورياً. وإذا فعلنا هذا، يجب علينا أن نقول إن جميع الأفعال والمظاهر التي ألاحظها في نفسي ولا أعرف كيف اربطها ببقية حياتي العقلية ينبغي الحكم عليها ووضعها كما لو كانت تخص شخصاً آخر (أنسبها ألي شخص آخر)، ويتوجب تفسيرها من خلال الحياة العقلية المنسوبة لذلك الشخص. علاوة على ذلك، تُظهر الخبرة أننا نفهم جيداً كيف نفسر في الآخرين (مثل كيف نناسب سياقهم العقلي) تلك الأفعال ذاتها التي نرفض الاعتراف بها على أنها مشروطة عقلياً في أنفسنا. من الواضح أن بعض العوائق الخاصة تُحرف استفساراتنا عن أنفسنا وتعارض مع حصولنا على معرفة حقة بأنفسنا.

الآن، فإن طريقة الاستدلال هذه، التي يطبقها المرء على نفسه على الرغم من المعارضة الداخلية والمقاومة، لا تفضي إلى اكتشاف اللاوعي (اللاشعور)، ولكنها تؤدي منطقياً إلى فرضية وجود وعي أو شعور آخر، وعي ثانٍ، هو متحد، في نفسي، متوحد مع ذلك الشعور الذي أعرفه لدي. لكن في هذه المرحلة، قد يؤدي النقد إلى بعض التعليقات والاعتراضات. في المقام الأول، ثمة وعي لا يعرف عنه صاحبه أو مالكة شيئاً وهو شيء مغاير ويختلف تماماً عن وعي أو شعور شخص آخر؛ ومن المشكوك فيه ما إذا كان هذا الوعي الذي يفتر، كما يفعل، لأهم خصائصه، يستحق أي نقاش إضافي على الإطلاق. إن أولئك الذين يتحدثون في فرض فرضية وجود نظام اللاوعي (اللاشعور) في العقل لن يكتفوا بقبول فرضية وجود "وعي لا شعوري" في مكانها. ثانياً، يُظهر التحليل أن العمليات العقلية الكامنة الفردية التي نستنتجها تتمتع بدرجة عالية من الاستقلالية حيال بعضها البعض، وكأن كل واحدة منها لا علاقة لها بالأخرى، ولا تعرف شيئاً عنها. ينبغي علينا إذن أن نكون مستعدين، على ما يبدو، للتسليم لا بوجود وعي ثانٍ فينا فحسب، بل أيضاً وعي ثالث ورابع، ربما سلسلة لا حصر لها من حالات الوعي، كل منها غير معروف لنا وتجهل بعضها البعض. ثالثاً- وهذه هي الحجة الأكثر ثقلاً على الإطلاق- وعلينا أن نأخذ في الاعتبار أن البحث التحليلي قد كشف لنا عن بعض هذه العمليات الأساسية التي لها خصوصيات وخصائص مميزة تبدو غريبة بالنسبة لنا، بل حتى عجيبة لا تصدق، وتتعارض بشكل مباشر مع الخصائص المميزة المعروفة للشعور. هذا هو ما يبرر لنا تعديل استنتاجنا عن أنفسنا بالذات والقول بأن ما تم إثباته ليس وعياً ثانياً فينا، بل وجود عمليات عقلية معينة تفتقر إلى صفة الوعي أو الصفة الشعورية. علاوة على ذلك، سنكون على حق أيضاً في رفض مصطلح "ما قبل - الوعي" باعتباره مصطلحاً غير صحيح ومضلاً. إن الحالات المعروفة بـ "ازدواج الشعور" (انشطار الوعي وانقسامه) لا تثبت شيئاً ضد وجهة نظرنا. يمكن وصفها بشكل أكثر دقة بأنها حالات انقسام في الأنشطة العقلية إلى مجموعتين أو فئتين، على اعتبار أن الشعور الواحد هو ذاته يتخذ موقعا تناوبيا مع هذه المجموعات أو تلك.

إن في التحليل النفسي، ليس لدينا خيار سوى إعلان إن هناك عمليات عقلية (نفسية) هي في حد ذاتها لاشعورية، وأن نقارن إدراكها من قِبَل الوعي أو الشعور بإدراك العالم الخارجي من خلال أعضاء الحس. نحن نأمل حتى في استخراج واستخلاص بعض المعرفة الجديدة من المقارنة. يبدو لنا أن الفرضية التحليلية النفسية للنشاط العقلي اللاواعي، من ناحية، بمثابة تطورا إضافيا مشتقا من تلك الإرواحية

(الإحيائية) البدائية التي كانت تجعل وعينا ينعكس في كل شيء حولنا (يجعل روحنا في كل ما هو حولنا)، و، من ناحية أخرى، يبدو لنا أنها (هذه الفرضية) تعد امتداداً لتلك التصحيحات التي بدأها كانط فيما يتعلق بآرائنا حول الإدراك الخارجي. مثلما حذرنا كانط من عدم إغفال حقيقة أن إدراكنا مشروط بشكل موضوعي ولا ينبغي اعتباره متطابقاً مع الظواهر المدركة حتى وإن كانت غير مميزة حقاً. إن التحليل النفسي يطلب منا ألا نضع الإدراك الواعي في مكان العملية العقلية اللاشعورية التي هي موضوعه. إن ما هو عقلي ذهني، مثله مثل ما هو جسماني، ليس له بالضرورة، في الواقع، أن يتبدى لنا. ومع ذلك، فمن المُرضي أن نجد أن تصحيح الإدراك الداخلي لا يمثل صعوبات كبيرة مثل تلك الخاصة بالإدراك الخارجي- بحيث يكون تمييز الموضوع الداخلي أقل صعوبة في تمييزه مما يكون عليه إدراك العالم الخارجي.

## 2. الدلالات المتباينة لمصطلح "اللاشعور"، والمنحى الطبوغرافي له

قبل أن نتابع ونذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، دعونا نلاحظ الحقيقة الهامة، وإن كانت غير مريحة، التي مفادها أن اللاشعور ليس سوى سمة واحدة من سمات العقل ولا يكفي بأي حال من الأحوال وصف ميزاته وتحديد صفاته كافة. هناك أفعالاً عقلية ذات قيم متفاوتة للغاية تشترك، مع ذلك، فيما بينها في خاصية كونها لاشعورية. إن اللاشعور يتضمن، من ناحية، عمليات هي خفية ومحض أفعال كامنه تقريباً، لاشعورية مؤقتاً، وإن كانت لا تختلف في أي منحى آخر عن العمليات الشعورية، و، من ناحية أخرى، يتضمن عمليات كتلك التي تعرضت للكبت، والتي إذا دخلت الي الشعور عليها أن تبرز في أوضح تناقض وباقي عمليات العقل الشعورية. سيتم وضع حدًا لكل سوء الفهم هذا إذا نحينا جانباً، من الآن فصاعداً، مسألة معرفة ما إذا كانت هذه الأفعال العقلية المتباينة شعورية أو لاشعورية، وكان استفسارنا فقط بشأن تصنيفها وربطها ببعضها البعض يكون وفقاً لعلاقتها بالدفعات الغريزية والاهداف المرتبطة بها والكيفية التي تتشكل بها والتي أي نسق من الأنساق النفسية التي تتراتب هرمياً ويتم فرضها فوق بعضها البعض تكون تنتمي. ومع ذلك، يعد مثل هذا الإسناد ضرباً من الغموض وغير قابل للتحقيق لأسباب شتى؛ ومن ثم لا يسعنا أن نتملص من ذلك الالتباس والغموض جراء استخدامنا لكلمتي الشعور واللاشعور تارة بمعنى وصفي، وتارة أخرى بمعنى نسقي؛ وفي هذا الاستخدام الأخير (المعنى النسقي) فإن هاتين الكلمتين يشيران إلى ضرب من التضمين والانتماء الي نسق بعينه وإلى امتلاك خصائص مميزة بعينها. ربما لما نزل نحاول تجنب الالتباس باستخدام بعض الأسماء المختارة تعسفاً لأنساق عقلية هي معروفة لنا؛ أسماء تم اختيارها تعسفاً وكيفياً وليس لها من إسناد الي الوعي. فقط يجب علينا أولاً وقبل كل شيء أن نبرر سلفاً جملة المبادئ التي نميز على أساسها فيما بين الأنساق. ولن يكون في مقدورنا أن نتجاهل الاستفسار عن مسألة الوعي أو نتملص منها؛ لأننا نراها تشكل نقطة انطلاق لجميع تقصيائنا وبحثنا. ولعلنا قد نتطلع لبعض المساعدة من خلال الاقتراح بأن نقوم باستخدام، بأي حال من الأحوال عند الكتابة، الاختصار "Cs" للنسق الشعوري و"UCS" للنسق اللاشعوري عندما نستخدم الكلمتين بالمعنى النسقي.

وللتعامل مع الجوانب الإيجابية، علينا أن نؤكد الآن، على أساس النتائج التي توصل إليها التحليل النفسي، أن أي فعل عقلي (نفسى) يمر عادة بمرحلتين، يدخل فيما بينهما نوعاً من عملية الفحص (الرقابة). ففي المرحلة الأولى، يكون الفعل العقلي فعلاً لا شعورياً، وينتمي إلى النسق اللاشعوري **Ucs system**؛ وإذا تم رفضه بفعل الفحص، بعد تدقيق الرقابة، لم يتم السماح له بالمرور إلى المرحلة الثانية؛ آنذاك يقال عنه إنه "مكبوت" وعليه أن يبقى بالضرورة في هذه الحالة لا شعورياً. ومع ذلك، إذا نجح هذا الفعل العقلي في هذا الاختبار والفحص وسُمح له بالمرور، فإنه يدخل إلى المرحلة الثانية؛ ومن الآن فصاعداً، يصبح هذا الفعل العقلي ينتمي إلى النسق الثاني، الذي قررنا أن نسميه النسق الشعوري **Cs**. غير أن الحقيقة هي أن كونه ينتمي على هذا النحو إلى النسق الشعوري، فإن مسألة علاقته بالوعي لم تتحدد بعد بشكل صريح لا لبس فيه. إنه لم يعد بعد فعلاً عقلياً شعورياً، ولكن يقينا يكون قد أصبح قادراً على دخول الوعي وفقاً لتعبير بروير **J. Breuer**، أي يمكن القول، لقد أصبح الآن بإمكانه، دون أي مقاومة خاصة وشروط محددة بعينها، أن يصبح موضوعاً للوعي. وبوضع هذه القدرة في أن يصبح شعورياً في الاعتبار، فإنه يمكننا أن نطلق على النسق الشعوري "**C**" أيضاً اسم "**النسق القبشعوري**". وإذا اتضح أن هناك ثمة رقابة أخرى بعينها من شأنها أن تحدد أيضاً ما إذا كان الممكن للنسق القبشعور أن يصبح نسقاً شعورياً، فإننا سنكون على استعداد في هذه الحالة الفصل بمزيد من الصرامة بين نسق القبشعور ونسق الشعور. أما في الوقت الحاضر، يكفينا أن تضع في اعتبارنا أن النسق القبشعوري **Pes** يشارك الخصائص المميزة للنسق الشعوري **C**، وإن الرقابة الصارمة تمارس مهمتها عند نقطة الانتقال من النسق اللاشعوري **Ucs** إلى النسق القبشعوري (أو النسق الشعوري **C**).

إن التحليل النفسي، بإقراره بوجود هذه الأنساق العقلية (اثنان أو ثلاثة)، يكون قد خطا خطوة أخرى إلى الأمام بعيداً عن علم النفس الوصفي للشعور، واتخذ لنفسه كيفية جديدة في طرح المشكلات ومضمونها جديداً. إن ما يميز التحليل النفسي، حتى اليوم، في اختلافه عن علم النفس الأكاديمي (الوصفي)، هو، بشكل أساسي، تصوره الدينامي للعمليات النفسية. والآن بات علينا أن نضيف من الآن فصاعداً قرار التحليل النفسي بأن يضع النظرة الطبوغرافية العقلية هي الأخرى في الاعتبار، وبأن يعين بالنسبة إلى أي عملية إجرائية عقلية بعينها ما النسق الذي تكون في داخله، أو ما الانساق التي بينها تجري ويتم أداءها. وبفضل هذه المشروع، فإن التحليل النفسي يستحق أن نطلق عليه تسمية "**علم نفس الأعماق**". وهو على كل حال مشروع قابل للإثراء بوجهة نظر أخرى، كما إنه يمكن تضخيمه بشكل أكبر من خلال جانب آخر من جوانب الذات.

إذا أردنا أن نتعامل بجدية مع فكرة وجود طبوغرافي للأفعال العقلية، علينا أن نوجه اهتمامنا إلى ذلك الشك الذي ينشأ بشأن هذه النقطة ويضعنا في موقف حرج. عندما يتم نقل فعل عقلي (دعنا نحصر أنفسنا هنا في فعل تفكير تصوري ذو طبيعة تمثيلية) من النسق اللاشعوري **Ucs System** إلى النسق الشعوري **C** (أو النسق القبشعوري)، فهل لنا أن نفترض أن هذا النقل يتضمن **سجلاً جديداً** (عمل سجل جديد أو نسخه جديدة) يمكن مقارنته، أن صح التعبير، **بسجل ثانٍ للفكرة المعنية** (التي نحن بصددها)؛ سجلاً ثانياً يشغل، علاوة على ذلك، موقعا نفسياً جديداً في النفس دون أن يُمحي **السجل اللاشعوري الأصلي** وأن يبقيا الموقعين قائمان جنباً إلى جنب؟ أم يتوجب علينا بالأحرى أن نفكر ونعتقد أن الانتقال

المشار اليه لا يعدو أن يكون **تغيراً في حالة الفكرة**، متضمناً المادة عينها وحدثها في نفس الموقع؟ قد يبدو هذا السؤال غامضاً ووعيصاً، لكن يتعين طرحه إذا كنا نريد أن نكوّن تصوراً أكثر تحديداً وأوضح بشأن الطبوغرافية النفسية، وبشأن البعد الأعرق في النفس. إنه سؤال صعب لأنه يتجاوز علم النفس البحث ويمس علاقات الجهاز النفسي بالتشريح. نحن نعلم أن هناك ثمة ارتباطاً تقريبياً بهذه القشرة المخية. لقد قدمت لنا الأبحاث العلمية أدلة دامغة على أن النشاط العقلي (النفسي) مرتبط بوظيفة الدماغ مثلما هو الحال مع أي عضو آخر. وقد تقدم البحث الي ما هو أبعد من ذلك، ولكن لا ندري الي أي حد، ولا نعرف حجم هذه الخطوة- باكتشافه أن لأجزاء المخ أهمية غير متعادلة، وعلاقات تفاضلية فردية بأجزاء بعينها من الجسم، ونشاطات عقلية بعينها. لكن جميع المحاولات التي بذلت للتكهن، انطلاقاً من ذلك، بطبوغرافيا العمليات العقلية وتوطينها، وجميع الجهود التي تركزت على محاولة تصوير الأفكار (التمثلات) وكأنها مخزنة في خلايا عصبية أو التي رمت الي تحديد مجري التنبيهات في الألياف العصبية، كان مآلها جميعها الي إخفاق ذريع. وقد تنتظر العقيدة التي حاولت إدراكها نفس المصير. ولعلنا نقول، أن الوضعية التشريحية للنشاط العقلي للنسق الشعوري إنما تكون في قشرة الدماغ وأن طبوغرافيا العمليات اللاشعورية وتوطينها يكون في المناطق تحت القشرية من الدماغ. وللحق، هنا ثمة فجوة لا يمكن سدها ولا سبيل الي ردمها في الوقت الحاضر، وليس من مهمة علم النفس أن يملأها. **إن طبوغرافيتنا العقلية لا علاقة لها بالتشريح.** فالأمر لا يتعلق بمواقع تشريحية، بل يتعلق **بمناطق في الجهاز النفسي**، بغض النظر عن موقعها المحتمل في الجسم.

وبهذا الشأن لن يكون عملنا مقيداً، ويمكننا المضي قدماً وفقاً لمتطلباته الخاصة. علاوة على ذلك، سيكون من المفيد لنا أن نُذكر أنفسنا بأن فرضياتنا لا تستطيع أن تدعي لنفسها، في البدء، من قيمة سوي قيمة التمثيل المجازي عن طريق الرسوم التوضيحية. إن أولي الاحتمالين اللذين أخذناهما في الاعتبار- أعني تحديداً، احتمالية أن تتضمن المرحلة الشعورية لفكرة ما سجلاً جديداً لها؛ سجلاً يجب أن يتموقع في مكان آخر- لهي بلا شك الاحتمال الأكثر فجاجة، ولكنه أيضاً الأكثر ملاءمة والانسب. اما الاحتمالية الثانية، والتي تفترض أن ثمة **تغيير وظيفي في الحالة ليس الا**، فهي على الأرجح مجرد احتمالية، ولكنها أيضاً أقل مرونة وتشكلاً وأقل مطاوعة، وأقل بديهية في التعامل معها. إن مع الفرضية الاولي، او الفرضية الطبوغرافية، فإن الامر يتعلق بافتراض فرضية أن هناك ثمة فصل طبوغرافي فيما بين النسقين الشعوري واللاشعوري، كما يتعلق بإمكانية أن فكرة ما (تمثل) تتواجد وتكون حاضرة، في وقت واحد وعلى نحو متزامن معاً، في موضعين من الجهاز النفسي- في الواقع، إذا لم يتم كفها ومنعها من خلال الرقابة، بحيث يمكنها أن تتقدم بانتظام من وضعية إلى أخرى، وربما دون أن تبارح موقعها الأول، ودون أي تخل عن وضعيتها الاولي أو عن سجلها الاولي. قد يبدو هذا غريباً، لكن يمكن دعمه في الواقع بملاحظات وانطباعات مستقاة من ممارسة التحليل النفسي.

لو أطلعنا المريض على فكرة ما بعينها (تمثل فكري) كنا قد اكتشفناها لديه أثناء التحليل، وقد أفلحنا في توصيلها اليه؛ فكرة كان قد كتبها وقُمت ذات مرة في زمن ما، لما غير ذلك من الأمر شيئاً في حالته النفسية في بادئ الأمر. وعلاوة على ذلك، فإن إخبارنا له بهذه الفكرة في البداية لا ينتج عنه أي تغيير في حالته العقلية؛ فالكبت لا ولن يُزال ولن تُلغى آثاره وفاعليته، خلافاً لما هو متوقع من حقيقة أن الفكرة التي

كانت لاشعورية سبفاً قد غدت الآن شعورية. بل على العكس من ذلك، فإن كل ما أنجزناه وما حققناه في البداية سوف يكون ضرباً من الرفض الجديد للفكرة (للمثل) المكبوتة. ومع ذلك، فإنه عند هذه النقطة، يكون قد أصبح لدى المريض، في الواقع الفعلي، نفس الفكرة في موقعين مختلفين منفصلين في جهازه النفسي: أولاً، بات لديه ذاكرة شعورية بشأن الانطباع (الأثر) السمعي للفكرة (للمثل) التي تم نقلها له فيما أطلعناه؛ و، ثانياً، جنباً إلى جنب مع هذا، لديه- كما نعلم بالتأكيد- الذاكرة اللاشعورية لخبرته الفعلية الموجودة في شكلها السابق. الآن وفي الواقع لا يتم رفع للكبت وإلغائه حتى تتحد (تتلاقى) الفكرة (للمثل) الشعورية، بعد التغلب على المقاومات، مع الأثار-الذكورية اللاشعورية. إنه فقط من خلال جلب واستحضار الأثار-الذكورية نفسها وجعلها شعورية، فإنه آنذاك فقط يتحقق الأثر (العلاجي). وعلى مستوى الاعتبار والفحص السطحي، قد يبدو أن هذا يُظهر أن الأفكار الشعورية (التمثلات الشعورية) والأفكار اللاشعورية (التمثلات اللاشعورية) هما تسجيلان مختلفان ومنفصلان طبوغرافياً لنفس المحتوى. لكن في ضوء الانعكاس التألمي اللحظي يظهر لنا أن تماثل المعلومات المعطاة للمريض والمقدمة إليه مع ذاكرته المكبوتة هو تماثل ظاهري ليس إلا. أن تستمع فهذا شيء، وأن تخبر وتعيش هو شيء آخر؛ إنهما شيان مختلفان من الناحية النفسية، حتى وإن يكن مضمونهما متماثلاً وواحداً.

لذلك فإنه في الوقت الحالي لا يمكننا أن نقرر ما علينا أن نناقشه من بين الاحتمالين. ولربما في وقت لاحق سنجد بعض العوامل التي قد ترجح كفة الميزان لصالح أحد الاحتمالين أو الآخر. ولعلنا سوف نكتشف، في أجل غير بعيد، أن طريقتنا في طرح المشكلة كانت ناقصة وغير مكتملة بما يكفي؛ وأنه يجب تحديد التمييز بين فكرة شعورية (تمثل شعوري) وفكرة لاشعورية (تمثل لاشعوري) بطريقة مغايرة تماماً.

### 3. الوجدانات اللاشعورية

لقد قصرنا المناقشة السابقة على الأفكار (التمثلات)، وبوسعنا الآن أن نطرح سؤالاً جديداً، يمكن أن تساهم الإجابة عليه في توضيح موقفنا النظري. لقد قلنا إن هناك أفكاراً (تمثلات) شعورية وأفكاراً (تمثلات) لاشعورية؛ ولكن هل هناك أيضاً من دفعات غريزية لاشعورية، ومن وجدانات ومشاعر لاشعورية، أم أن مثل هذه التوليفات والبناءات في هذه الحالة تخلو من أي معنى؟

للحق، عندي وجهة نظر مفادها أن التعارض بين الشعور واللاشعور لا ينطبق على الدفعات الغريزية. فالدفعة الغريزية لا يمكن لها أبداً أن تكون موضوعاً للشعور- إنما فقط الفكرة التي تمثل الغريزة. علاوة على ذلك، فإنه حتى في اللاشعور، لا يمكن تمثيل الدفعة الغريزية إلا بفكرة (تمثل). فإن لم تربط الغريزة نفسها بفكرة (تمثل) أو تُظهر نفسها كحالة انفعالية، فلا يمكننا معرفة شيئاً عنها. وعلى الرغم من أننا نتحدث عن دفعة غريزية لاشعورية أو دفعة غريزية مكبوتة، فإن هذا قد يُعتبر ضرباً من التشويه في الصياغة العلمية الذي لا يترتب عليه عواقب ضارة. فعندما نكون بصدد دفعة غريزية، فإننا لم نكن نعني



بذلك الا ضربا من الحضور الفكري (التمثل التصوري) لما هو لاشعوري، لأنه لا شيء آخر يكون في الاعتبار.

يجب أن نتوقع أن تكون الإجابة بشأن السؤال حول المشاعر والوجدانات والانفعالات اللاشعورية على نفس القدر من السهولة. بيد إنه من صميم الوجدان أن نشعره، أي، إن يكون معروفا لنا ويدخل الشعور. لذلك فإن السؤال عن أن تكون الوجدانات والمشاعر والانفعالات لاشعورية هو سؤال غير وارد تماماً. لكن في ممارسة التحليل النفسي، اعتدنا الحديث عن الحب اللاشعوري وعن الكراهية اللاشعورية وعن الغضب اللاشعوري، وما إلى ذلك. ونجد أنه لا مناص من أن نتجنب هذا الاقتران الغريب، "الوعي اللاشعوري بالذنب"، أو ضرب "الحصر اللاشعوري" الذي ينطوي على مفارقة. فهل من المنطقي أن يكون من معني أكثر في استخدام مثل هذه المصطلحات بأكثر من الحديث عن "غرائز لاشعورية"؟

في الواقع، لا تُمثل الأمور للعيان هنا هكذا. فقد يحدث بادئ ذي بدء أن يتم إدراك دفعة وجدانية أوحاله انفعالية ولكن يساء فهمها. فعن طريق كبت ممثلها الخاص، فإنها تضطر الي أن ترتبط بفكرة أخرى، وعندئذ يقوم الشعور بتفسيرها على أنها تعبير وتجلي لهذه الفكرة الأخرى. وإذا ما استعدنا الارتباط الحقيقي واسترجعناه، فإننا سوف نعتبر الانفعال الأصلي "الاشعوري"، حتى على الرغم من أن الانفعال لا يمكن له أبداً أن يكون لا شعورياً، ولكن حضوره الفكري (تمثله الفكري) هو من خضع للكبت. وعلى أي حال، فإن استخدام مصطلحات من قبيل "الانفعال اللاشعوري أو الوجدان اللاشعوري" إنما يشير إلى المصير الذي خضع له العامل الكمي، نتيجة للكبت، في الدفعة الغريزية. نحن نعلم أن الانفعال قد يخضع إلى ثلاث تقلبات أو مصائر مختلفة: إما أن يبقى الانفعال كما هو، كلياً أو جزئياً؛ وإما أن يتحول إلى شحنة انفعالية مختلفة نوعياً، وبصورة رئيسية إلى قلق أو حصر؛ وإما أن يُكبح ويُقمع، أي أن يُعاق تطوره تماماً. (ربما يمكن دراسة هذه الاحتمالات بسهولة أكبر في تكنيك إخراج الأحلام منها في العصاب). وكما نعلم، أيضاً، أن الهدف الحق للكبت هو قمع تطور الانفعال، وأن عمل هذا الكبت لا نهاية له إذا لم يتحقق بلوغ هذا الهدف. وفي كل حالة من الحالات التي ينجح فيها الكبت في كف نشوء الانفعال وتطوره، فإننا نستخدم آنذاك مصطلح "الاشعور" لننعت به تلك الانفعالات التي نعيدها الي نصابها ونسترجعها عندما نلغي فعل الكبت. لذلك لا يمكن لنا أن ننكر أن استخدام المصطلحات المعنية لهو أمر منطقي؛ لكن المقارنة بين الانفعال اللاشعوري والفكرة اللاشعورية تكشف لنا عن اختلاف كبير دال مفاده أن الفكرة اللاشعورية تستمر، بعد الكبت، كتكوين فعلي في النسق اللاشعوري Ucs، في حين أنه لا توجد من مماثلات (أو ترجمات) للانفعال اللاشعوري في نفس النسق الا فقط كوضعية محايثة (موجودة بالقوة) قد مُنعت من التطور التالي. لذلك فإنه، وبالمعنى الدقيق للكلمة، وعلى الرغم من عدم وجود خطأ في طريقة التعبير المعنية، ليس هناك من انفعالات لاشعورية بالمعنى الذي فيه توجد أفكارا لاشعورية. ولكن قد يكون هناك بدرجة كبيرة تكوينات انفعالية في النسق اللاشعوري Ucs، والتي لا تلبث، مثلها مثل غيرها، أن تغدو شعورية. ينشأ الاختلاف الكامل ويتأتى من حقيقة أن الأفكار هي- في النهاية - شحنات طاقائية لآثار ذكروية- بينما الوجدانات والانفعالات هي عمليات تفريغ، يتم إدراك تعبيراتها النهائية في شكل إحساسات. في الوضع الراهن لمعرفتنا بالانفعالات والوجدانات، لا يمكننا أن نصح أكثر مما أفصحنا عنه بصدد الفرق المشار اليه.

من المهم لنا، بشكل خاص، إثبات حقيقة أن الكبت يمكنه أن ينجح في منع تحول الدفعة الغريزية والحيلولة دون أن تجد لها تعبيرًا انفعاليًا. ولهذه الملاحظة أهمية فائقة بالنسبة لنا إذ تُظهر لنا وتبين أن النسق الشعوري هو من يتحكم عادة في التأثيرات الانفعالية، بالإضافة إلى التحكم في عملية وصولها إلى الحركة؛ وهذا يعزز أهمية الكبت ويرفع من قيمته، لأنه يوضح لنا أن الأخير (الكبت) هو المسؤول، ليس فقط عن حجب شيء ما ومنعه من أن يصبح شعورياً، ولكن أيضاً هو المسؤول عندما يتم منع التطور الانفعالي وانطلاق النشاط العضلي. وبوسعنا أن نقول أيضاً فيما لو عكسنا تصورنا للأمور: أن نقول إنه طالما أن النسق الشعوري هو من يتحكم في النشاط والحركة، فإنه يمكن اعتبار الحالة العقلية للشخص المعني طبيعية سوية. ومع ذلك، هناك ثمة اختلاف واضح في علاقة نظام التحكم بعلميتي التفريغ المتحالفين والمتجاورين. ففي حين تكون سيطرة النسق الشعوري على الحركة الإرادية متجذرة بشكل نهائي، وتقاوم بانتظام هجوم العصاب وتتعطل فقط في الذهان، فإن سيطرة النسق الشعوري على التطور الانفعالي تكون أقل رسوخاً. وإذا بقينا ضمن حدود الحياة الطبيعية السوية، يمكننا أن ندرك أن النسقين القبعشعوري والشعوري يتصارعان باستمرار ليضمن كل نسق منهما لنفسه الكلمة العليا في السيطرة على الطاقة الوجدانية، ورأينا أن بعض مجالات التأثير ودوائر النفوذ تختلف عن بعضها البعض وأن قوى الفعل تؤدي إلى عقد تحالفات فاعلة.

إن أهمية النسق الشعوري (القبعشعوري) فيما يتعلق بمسارات التفريغ الانفعالية والحركية تمكنا أيضاً من فهم الدور الذي يقع على عاتق الأفكار البديلة في تحديد شكل مرض ما من الأمراض. ومن الممكن أن يتقدم التطور الانفعالي مباشرة من النسق اللاشعوري UCS؛ وفي هذه الحالة يكون له على الدوام طابع الحصر؛ وهذا الحصر هو البديل عن كل الانفعالات "المكبوتة". ومع ذلك قد يحدث أيضاً، وفي كثير من الأحيان، أن تضطر الدفعة الغريزية الي الانتظار حتى تجد لها فكرة (تمثيلاً) بديلة في النسق الشعوري CS. يمكن آنذاك أن يتقدم التطور الانفعالي وينطلق من هذا البديل الشعوري الذي من طبيعته أن يحدد الخاصية النوعية للانفعال. لقد أكدنا أنه في ظل الكبت وتحت تأثيره ثمة قطع وفصل يحدث بين الانفعال والفكرة (التمثل) التي ينتمي إليها، مما يجعل كل منهما يسير نحو مصيره الخاص. ومن وجهة النظر الوصفية، هذا أمر لا جدال فيه. ومع ذلك، وفي الواقع الفعلي، فإن الانفعال لا يعلن عن ظهوره ما لم يكمل بالنجاح في الاختراق الي النسق الشعوري الذي يهيب له كيفية جديدة لتمثيله والارتباط ببعض الأفكار البديلة الجديدة.

#### 4- طبوغرافيا الكبت وديناميته

لقد جمعنا حتى الآن من مناقشتنا أن الكبت هو في الأساس عملية تؤثر وتؤتي أكلها على الأفكار، عند الحد الفاصل بين النسقين اللاشعوري والشعوري (القبعشعوري)، ويمكننا الآن القيام بمحاولة جديدة لوصف هذه العملية بدقة أكبر. لا بد أن يكون الأمر يتعلق بسحب شحنه طاقاتييه cathexis؛ لكن السؤال الجدير

بالبحث هو ذلك السؤال المتعلق بمعرفة ما هو النسق الذي يتم فيه سحب الشحنة الطاقائية والي أي نسق سنتنمي الشحنة المسحوبة؟

في النسق اللاشعوري تبقى الفكرة المكبوتة قادرة على العمل، وبالتالي فهي تبقى تحتفظ بشحنتها الطاقائية. ومن ثم، فإن ما جري سحبه لا بد وأنه شيئاً ما آخر. لعلنا نأخذ حالة الكبت الخالص ("ما بعد الطرد والابعاد")، باعتبار ان الكبت الخالص يؤثر على الفكرة التي هي قبشعورية أو حتى على الفكرة التي تكون قد دخلت بالفعل الشعور(الوعي). هنا لا يمكن للكبت أن يقوم الا على سحب الشحنة من فكرة النسق الشعوري (القبشعور) التي تنتمي الي النسق القبشعوري. وفي هذه الحالة، تبقى الفكرة بدون شحنة طاقائية، أو أن تتلقى شحنة طاقائية من النسق اللاشعوري، أو أن تبقى تحتفظ بالشحنة الطاقائية اللاشعورية التي كانت لها سابقاً. وبالتالي، يكون قد أصبح لدينا إما سحب لشحنة قبشعورية، أو احتفاظ بشحنة لاشعورية، أو استبدال الشحنة القبشعورية بشحنة لاشعورية. علاوة على ذلك، نلاحظ أننا قد أقمنا هذه التأملات، على ما يبدو، دونما قصد، على أساس فرضية مؤداها أن الانتقال من النسق اللاشعوري إلى النسق الأقرب إليه لا يتأثر من خلال عمل تسجيل جديد ولكن من خلال تغيير في حالته، أي بتغيير وتبدل في شحنته الطاقائية. أن الفرضية الوظيفية هي هنا من تدير ببسر الفرضية الطبوغرافية.

غير أن عملية سحب الليبيدو هذه لا تكفي لجعل خاصية الكبت الأخرى مفهومة لنا. ليس واضحاً لماذا لم تحاول الفكرة (التمثل) التي أبقت على شحنتها أو التي تلقت شحنة من النسق اللاشعوري من جديد، بفضل شحنتها الطاقائية، أن تقتحم النسق القبشعوري وتخرقه. آنذاك، وفي هذه الحالة، لا بد وأن يتكرر سحب الليبيدو، وأن يتكرر نفس الأداء بشكل لا نهائي، ولكن النتيجة قد لا تكون الكبت. وعلى نفس النحو، قد يفشل ميكانيزم سحب الشحنة القبشعورية، الذي قد ناقشناه للتو، في تفسير **عملية الكبت الأولي**؛ لأنه علينا هنا أن نفكر في الفكرة اللاشعورية التي لم تكون قد تلقت بعد أي شحنة طاقائية من النسق القبشعوري، وبالتالي لا سبيل لأن يسحب منها أي شحنة أو أن يتم حرمانها منها.

وبالتالي، فإن علينا أن نبحث هنا عن عملية أخرى من شأنها أن تُبقي على الكبت في الحالة الأولى، وأن يكون دورها، في الحالة الثانية، توطيده (الكبت) وضمان استمراريته؛ وهذه العملية الأخرى لا يمكننا أن نجدها الا في طرح فرضية **الشحنة المضادة**، والتي من خلالها يحمي النسق القبشعوري نفسه ضد أي إقحام للفكرة اللاشعورية وضغطها. وسوف نرى من الأمثلة الكلينيكية الي أي مدي يمكن لمثل هذه **الشحنة المضادة** الراسخة في النسق القبشعوري أن تُظهر نفسها. إن هذه الشحنة المضادة هي ما يمثل الجهد المستمر الذي يتطلبه الكبت الأولي، ولكنها هي أيضا الضامن على استمرارية الكبت الأولي ودوامه. إن الشحن-المضاد هو الميكانيزم الوحيد للكبت الأولي؛ وأما في حالة الكبت الخالص ("ما بعد الطرد") فينضاف الي ذلك سحب لشحنة قبشعورية. ومن الممكن تماماً أن تكون الشحنة التي تم سحبها من الفكرة هي نفسها الشحنة المستخدمة في الشحن- المضاد anti-cathexis.

نلاحظ كيف إننا توصلنا شيئاً فشيئاً في عرضنا لتقديم وجهة نظر ثالثة في اسكيما الظواهر النفسية- جنبا إلى جانب وجهتي النظر الدينامية والطبوغرافية: الا وهي **وجهة النظر الاقتصادية**، وهي وجهة نظر

نحاول من خلالها تتبع مصائر كميات بعينها معينة من الإثارة وتحقيق بعض التقييم لهذه الكميات، على الأقل نسبياً. ولا يخلو الأمر من أهمية بالنسبة إلينا أن نعطي اسماً خاصاً لكيفية النظر للأشياء التي بها يكتمل البحث التحليلي النفسي. وأنا أقترح أن نتكلم عن تناول ميتاسيكولوجي، عندما ننجح في وصف عملية نفسية من النواحي الدينامية والطبوغرافية والاقتصادية. يجب أن نقول مسبقاً أننا لن نتوصل الي ذلك، في الحالة الحالية لمعرفتنا، الا فقط في نقاط منفردة.

دعونا نجازف هنا ونبدل جهداً مؤقتاً لإعطاء وصفاً ميتاسيكولوجياً لعملية الكبت في الأعصبة الطرحية الثلاث التي نعرفها. وبوسعنا أن نستبدل مصطلح الشحنة الطاقائية "cathexis" بمصطلح الليبيدو "libido"، ما دمنا نتعامل هنا، في هذه الحالة، مع مصير الدفعات الغريزية الجنسية.

إن في حالة القلق الهستيرى غالباً ما يتم التغاضي عن مرحلة أوائلية من العملية وتجاهلها، وربما للحق قد يتم حذفها في الواقع؛ ومع ذلك، فإنه يمكن تمييزها بوضوح بالملاحظة المتأنية. إن هذه المرحلة تكمن في ظهور حالة من القلق دون أن يعرف الشخص ما الذي يخاف منه وما هو موضوعه. لنا أن نفترض أنه يوجد دفعة- حب في النسق اللاشعوري تتطلب أن تترجم عن نفسها في النسق القبشعوري؛ ومع ذلك، فإنه يكون على الشحنة القبشعورية المرتدة منها أن تتخذ سبيلاً للهروب، وأن يتم تفرغ الشحنة الليبيدية اللاشعورية للفكرة المرفوضة في شكل قلق. وعند تكرار هذه العملية يتم اتخاذ خطوة أولى في اتجاه السيطرة على هذا التطور المؤلم للقلق. تربط الشحنة الهاربة نفسها بفكرة بديلة هي، من ناحية أولى، تكون في علاقة ترابط، على نحو أو آخر، مع الفكرة المرفوضة و، من ناحية أخرى، تكون قد نجت من الكبت وهربت منه كونها بعيدة عن تلك الفكرة (بديل- إزاحة)، وتفسح المجال لتبرير إطلاق حالة القلق التي لا يمكن السيطرة عليها. الآن، وفي هذه الحالة، تبدأ تلعب الفكرة البديلة دور الشحنة-المضادة في النسق الشعوري (القبشعوري) إذ تقوم بتأمين هذا النسق وحمايته ضد ظهور الفكرة المكبوتة في الشعور ودخولها الوعي؛ ومن ناحية، فإن هذه الفكرة البديلة تكون هي نقطة الانطلاق، أو تتصرف كما لو أنها نقطة البداية التي عندها ينفجر الانفعال القلق؛ ذلك الانفعال الذي لا يمكن الآن السيطرة عليه ويتم تفرغها والتخلص منه. تُظهر الملاحظة الكلينيكية أن الطفل الذي يشكو، على سبيل المثال، من رهاب الحيوانات لا يراوده شعور القلق ولا يخبره الا تحت نوعين من الشروط: في المقام الأول، عندما يتم تعزيز دفعة- الحب المكبوتة ويتم تدعيمها و، في الحالة الثانية، عندما يقع نظر الطفل على الحيوان الذي يخافه. تعمل الفكرة البديلة في الحالة الأولى وتتصرف كمؤصل وسيط من النسق اللاشعوري الي النسق الشعوري؛ وفي الحالة الأخرى، كمصدر مستقل منفصل بذاته لإطلاق القلق وتحريره. وعادة ما تتجلى السيطرة الممتدة من جانب النسق الشعوري في ضرب من الميل للفكرة البديلة ليتم إثارتها وتنبهها بسهولة أكثر، مع مرور الوقت، في الطريقة الثانية بأكثر مما تكون عليه في الطريقة الأولى. وربما قد ينتهي الأمر بالطفل بأن يتصرف وكأنه ليس لديه أي عاطفة حب على الإطلاق لوالده، وإنه قد أصبح متحرراً منه تماماً، ويتصرف وكأن الخوف من الحيوان هو الخوف الواقعي. إنه هذا الخوف من الحيوان هو وحده، بتغذيته من ينباع الغريزة اللاشعورية، الذي يثبت العناد والإسراف في مواجهة كل التأثيرات الصادرة من النسق الشعوري، وبالتالي يخادع أصله في النسق اللاشعوري ويضله.

وبالتالي، فإنه في المرحلة الثانية، في مرحلة القلق-الهستيرى، تفقد الشحنة-المضادة الأتية من النسق اللاشعوري إلى ضرب من التكوين- البديل. وسرعان ما يتم تطبيق الميكانيزم نفسه في اتجاه جديد. فعملية الكبت، كما نعلم، لم تنته بعد، وتجد لها هدفاً آخرًا في مهمة كف اندلاع القلق الصادر عن البديل والحيلولة دونه. وهذا يتم ويجري على النحو التالي: تصبح جميع الارتباطات الموجودة بالقرب من الفكرة البديلة تتمتع بشدة خاصة من الشحن الطاقاتي، ومن ثم قد تُظهر درجة عالية من الحساسية للإثارة والتنبيه. ومن ثم، فإن التنبيه والإثارة عند أي نقطة في هذه البنية الحامية الوقائية يؤدي، بسبب علاقته الارتباطية بالفكر البديلة، إلى درجة طفيفة من تطور القلق، والذي يتم استخدامه آنذاك كإشارة على الكف والمنع، عن طريق وسيلة جديدة من الهروب من جانب الشحنة، لاي تطور لاحق للقلق. وكلما طالت مدة وجود الشحنة المضادة الحساسة والنشطة حول البديل المرهوب، كلما كانت وظيفة الميكانيزم المصممة لعزل البديل وحمايته من الإثارة الجديدة أدق وأكثر تمامًا. وبطبيعة الحال، فإن هذه الاحتياطات لا تحمي إلا من الاستفزازات التي تتناول الفكرة البديلة والأتية من الخارج عن طريق الإدراك الحسي، ولكنها لا تحمي أبدًا من الإثارة الغريزية التي تتأتى من الصلة الارتباطية بالفكرة المكبوتة وتصل الي الفكرة البديلة. لذلك فإن هذه الاحتياطات لا تبدأ توتي مفعولها إذن الا بعد أن تتولى الفكرة البديلة بنجاح تمثيل ما تم كبته، علاوة على أنه لا يمكنها أبدًا التصرف بأمان تام. ومع كل زيادة في الإثارة الغريزية، يجب أن يتحول الحاجز الواقي المحيط بالفكرة البديلة إلى الخارج قليلًا. يسمى كل هذا البناء الذي يتم إنتاجه بطريقة مماثلة في الأعصاب الأخرى بالرهاب (الفوبيا). إن عمليات التجنب، والتخلي، والكف التي من خلالها ندرك القلق- الهستيرى لهي مناورات هروب من الشحنة الشعورية التي للفكرة البديلة. وبمسح العملية برمتها، قد نقول أن المرحلة الثالثة هي ضرب من التكرار والمضاعفة لعمل الثانية. والان يحمي النسق الشعوري نفسه عن طريق شحنة- مضادة لارتباطاته المحيطة به ضد تنشيط الفكرة البديلة، تمامًا كما كان هذا النسق قد أمّن نفسه سابقًا عن طريق شحن الفكرة البديلة ضد ظهور الفكرة المكبوتة. وهكذا يستمر التكوين البديل بفعل الإزاحة في مساره. يجب أيضًا أن نضيف أن النسق الشعوري ليس لديه في السابق الا نقطة صغيرة واحدة يمكن أن تخترق عندها الدفعة الغريزية المكبوتة، وأعني تحديدًا، الفكرة البديلة؛ ولكن في النهاية، تتماثل البنية الوقائية للرهاب بكليتها مع ضرب من التأثير اللاشعوري "البارز" من هذا النوع. علاوة على ذلك، قد نركز على وجهة النظر المثيرة للاهتمام والتي مفادها أنه من خلال أعمال ميكانيزم الدفاع بكليته يتم تحقيق ضرب من الإسقاط خارجيًا للتهديد من الغريزة وإزعاجها. تتصرف الانا كما لو أن خطر اندلاع القلق لا يهددها من اتجاه الغريزة ولكن من اتجاه الإدراك: هذا يمكن الأنا من الاستجابة لهذا الخطر الخارجي بمحاولات الهروب التي تكمن في التجنبتات المميزة للرهاب. وفي هذه العملية، ينجح الكبت بشكل خاص: قد يتم سد تفرغ القلق ومنعة بدرجة ما أو أخرى، ولكن فقط بتضحية هائلة بالحرية الشخصية. ومع ذلك، فإن محاولات الهروب من مزاعم الغريزة لا طائل من ورائها، وتبقى نتيجة الهروب بسبب الرهاب غير مرضية.

إن قدرًا كبيرًا مما أدركناه بشأن حقيقة القلق- الهستيرى يحمل نفعًا مفيد أيضًا للعصابين الآخرين؛ لذلك يمكننا حصر مناقشتنا في نقاط الاختلاف والدور الذي تلعبه الشحنة المضادة. في الهستيريا التحولية، يتم تحويل الشحنة الغريزية للفكرة المكبوتة ونقلها إلى التعصيب (البدني) الضروري للأعراض المرضية. أما إلى أي مدى وتحت أي ظروف تُفرغ الفكرة اللاشعورية شحنتها من خلال هذا المخرج والمنفذ نحو

التعصيب، حتى تتمكن من تحرير ضغطها تجاه النسق الشعوري- من الأفضل تخصيص هذه الأسئلة وغيرها للتحقيق الخاص والتقصي في الهستيريا. في الهستيريا التحولية، يكون الدور الذي يلعبه الشحن المضاد الصادر من النسق الشعوري (القبشعوري) واضحاً ويصبح متجلياً في تكوين الأعراض المرضية. إنه الشحن المضاد هو الذي يقرر أي جزء من تمثّل الغريزة يمكن أن تتمركز فيه الشحنة بأكملها. ومن ثم، فإن الجزء المختار لتشكيل عرض مرضي يلبي ويحقق شرط التعبير عن هدف الدفعة الغريزية بما لا يقل عن المسعى الدفاعي أو العقابي للنسق الشعوري؛ لذلك فهو يحقق شحن زائد ويتم الحفاظ عليه من كلا الاتجاهين كفكرة بديلة في القلق- الهستيريا. من هذا الطرف قد نستنتج دون مزيد من اللغط أن درجة الإنفاق على الكبت التي يفرضها النسق الشعوري لا يجب أن تكون متناسبة مع الشحنة الطاقائية للعرض المرضي؛ لأن قوة الكبت تقاس بالشحنة المضادة التي تفرزها، والأعراض المرضية لا يتم تدعيمها فقط بواسطة هذا الشحن المضاد ولكن أيضاً بالشحنة الغريزية من النسق اللاشعوري المتشابكة معها.

وبالإشارة إلى العصاب الوسواس القهري، لا نحتاج إلا أن نضيف إلى الملاحظات التي تم إجراؤها في الأوراق السابقة، حيث تتأتى عملية الشحن المضاد في النسق الشعوري بشكل ملحوظ أكثر في المقدمة. إن هذا هو ما يؤدي إلى الكبت الأول، في شكل تكوين عكسي، وبعد ذلك تكون هذه هي النقطة التي من خلاله يتم كسر الفكرة المكبوتة. قد نجد مجالاً لافتراض أنه إذا كان عمل الكبت يبدو أقل نجاحاً في القلق- الهستيريا والعصاب الوسواسي مقارنة بالهستيريا التحولية، فذلك لأن الشحن- المضاد يكون أكثر بروزاً ويفتقر لأي خرج أو منفذ.

## 5- الخصائص المميزة الخاصة بالنسق اللاشعوري

يتلقى التمييز الذي قد رسمناه فيما بين النسقين داخل العقل (النفس) دلالة جديدة عندما نلاحظ أن عمليات النسق اللاشعوري تُظهر خصائص خاصة ومميزة لم تقابلها ثانية ولا تتكرر في النسق الذي يعلوه مباشرة.

إن نواة النسق اللاشعوري تتكون من تمثلات غريزية تنشُد تفرغ شحنتها الطاقائية؛ هذا يعني القول إنها دفعات- رغبة. وتنسق هذه الدفعات الغريزية مع بعضها البعض، وتتعايش بشكل مستقل جنباً إلى جنب، ومُستثناه من التناقض المتبادل. عندما ينشط في نفس الوقت رغبتان يبدو لنا أن هدفيهما متضاربان وغير منسجمان، فإن الدفعتين لا ينتقصان من بعضهما البعض أو لا تلغي أحدهما الأخرى، ولكنهما يتحدان ويتضافران معا في تكوين هدف وسيط، حلا وسطا.

في النسق اللاشعوري لا وجود لكلمة النفي "لا"، لا ولا وجود للشك، لا ولا وجود لدرجات متفاوتة من اليقين: كل هذه الخصائص إنما يتم استيرادها وإقامتها فقط من خلال عمل الرقابة القائمة فيما بين النسق اللاشعوري والنسق القبشعوري. فالنفي، في أعلى مستواه، ما هو إلا بديل للكبت. في النسق اللاشعوري، لا يوجد إلا محتويات مشحونة بدرجات متفاوتة.

وشدة الشحنة الطاقاته تكون أكثر قدرة على الحركة في النسق اللاشعوري مقارنة بالنسقين الأخيرين. ومن خلال عملية الإزاحة (النقل)، يمكن أن تنتقل فكرة ما كامل شحنتها وتزيحها على فكرة أخرى؛ ومن خلال عملية التكثيف، يمكن لفكرة ما أن تستحوذ على الشحنة الكاملة لعدد من الأفكار الأخرى (تمثلها جميعها). ولقد اقترحت اعتبار هاتين العمليتين علامات مميزة لما يُسمى بالعملية الأولية في العقل. إن في النسق القبشعوري، تسود العملية الثانوية؛ في حين يُسمح للعملية الأولية أن تأخذ مسارها فيما يتعلق بالعناصر التي تنتمي إلى النسق القبشعوري. إن الأمر يبدو "كوميديا" ويستثير الضحك.

إن عمليات النسق اللاشعوري لا زمانية؛ أي بمعنى أنها لا تنتظم تنظيمًا وقياسًا، ولا تتغير بمرور الوقت؛ وفي الحقيقة هي عمليات لا علاقة لها بالوقت على الإطلاق. إن العلاقة بالوقت مرتبطة هي الأخرى بأداء وعمل النسق الشعوري.

إن عمليات النسق اللاشعوري ليست على صلة بالواقع إلا بالقدر القليل فقط. إنها تتبع مبدأ اللذة؛ ويعتمد مصيرها فقط على درجة قوتها وعلى المدى الذي تمتثل فيه لتنظيم اللذة والالم.

دعونا نلخص: انعدام التناقض، والعملية الأولية (حركية الشحنة)، واللازمانية، واحلال الواقع النفسي محل الواقع الخارجي- كل هذه الخصائص هي التي ينبغي علينا أن نتوقع وجودها ونلقاها في العمليات (الأولية) التي تنتمي إلى النسق اللاشعوري.

لا سبيل لمعرفة العمليات اللاشعورية الا تحت شروط حالات الحلم وحالات الأعصاب؛ أي أنه يمكن القول، عندما تعود عمليات النسق القبشعوري العليا مرتدة إلى مستوى سابق من خلال عملية تقهقر بعينه (بفعل عمليات نكوص). ولا يمكن تعرف هذه العمليات اللاشعورية بشكل مستقل، فالحق، لا يمكن لها حتى أن تكون موجودة، لأن النسق اللاشعوري يكون قد تم حجبهِ وتمويهه في مرحلة مبكرة جدًا من قبل النسق القبشعوري الذي يستحوذ على وسائل الوصول إلى الشعور والي الطاقة الحركية. وعن طريق تفريغ النسق اللاشعوري في التعصيب البدني يتمخض تطور في الانفعال، غير أن النسق القبشعوري، كما رأينا، يبقى ينازع حتى هذا المنفذ أو المخرج (وسيلة التفريغ هذه). وإذا تُرك نسق اللاشعور بمفرده لنفسه، في ظل الظروف العادية، فلن يكون قادرًا على تحفيز أي أفعال عضلية هادفة ومناسبه، باستثناء تلك التي تنتظم من الأساس على أنها ردود أفعال انعكاسية.

من أجل فهم الدلالة الكاملة للخصائص المميزة للنسق اللاشعوري التي ذكرناها آنفاً، علينا أن نفاقنهما ونضعها في مقابل تلك الخصائص المميزة للنسق القبشعوري. لكن هذا قد يأخذنا بعيدًا جدًا، الأمر الذي يجعلني أقترح أن علينا أن نُعلق مرة أخرى المقارنة ونتوقف عن عدم إجراء أي مقايضة بين النسقين حتى يتسنى لنا أن نتمكن من القيام بفحص عميق للنسق اللاشعوري: وعليه لن نذكر من الآن فصاعداً ال النقاط الأكثر إلحاحًا وذو أهمية عند هذه المرحلة.

إن عمليات النسق القبشعوري تكشف، بغض النظر عما إذا كانت شعورية بالفعل أو قادرة فقط على أن تصبح شعورية، عن ضرب من الكف في ميل الأفكار المشحونة نحو التفريغ. وعندما تنتقل العملية من

فكرة إلى أخرى، تحتفظ الأولى بجزء من شحنتها فقط يخضع جزء صغير للإزاحة. إن الإزاحة والتكيف، كما يحدثان في أسلوب عمل العملية الأولية، لا وجود لهما هنا أو يتم فرض قيود شديدة عليهما. وهذا الوضع هو من دفع "بروير" إلى افتراض فرضية وجود حالتين مختلفتين من الشحن الطاقاتي في الحياة العقلية (النفسية): الأولى تكون فيها الطاقة "مقيدة" من أساسها وعلى نحو نشط، والأخرى تكون فيها الطاقة تتحرك بحرية وتضغط باتجاه التفرغ. وفي اعتقادي يمثل هذا التمييز أعمق رؤية اكتسبناها، حتى وقتنا الحاضر، بشأن طبيعة الطاقة العصبية، ولست أدري ما السبيل الي عدم الأخذ بمثل هذا الاستنتاج. ولحق يتطلب العرض الميتاسيكولوجي على وجه السرعة مزيداً من المناقشة في هذه المرحلة، على الرغم من أن ذلك قد لا يزال مهمة جريئة للغاية.

علاوة على ذلك، فإن من خصائص النسق القبشعوري القيام بمهمة جعل الاتصال ممكناً بين المحتويات الفكرية المختلفة حتى تتمكن من التأثير على بعضها البعض، ومهمة منح هذه المحتويات الفكرية ترتيباً زمنياً، ومهمة إطلاق الرقابة أو عدة رقابات، ومهمة تعميم أو تأسيس مؤسسة "اختبار الواقع" ومبدأ الواقع. يبدو أيضاً أن الذاكرة الشعورية تعتمد كلياً على النسق القبشعوري ويجب تمييزها بوضوح عن آثار- الذاكرة التي فيها تم تثبيت خبرات النسق اللاشعوري ثابتة؛ ربما يتوافق هذا ويتطابق مع إنشاء ضرب من سجل خاص- ذلك التصور الذي حاولنا استخدامه لشرح العلاقة بين الأفكار الشعورية واللاشعورية، لكننا كنا قد تجاهلناه بالفعل. وفي هذا الصدد والسياق، سنجد أيضاً الوسيلة لوضع حد لعدم اليقين لدينا وتردنا فيما يتعلق بتسمية النسق الأعلى الذي نطلق عليه حالياً وبشكل غامض تارة النسق القبشعوري تارة النسق الشعوري.

هنا، أيضاً، سيكون من المفيد إصدار تحذيراً من تعميمات سابقة متسرعة حول ما ألقينا عليه الضوء واستخلصناه حتى الآن فيما يتعلق بتوزيع الأنشطة العقلية المختلفة بين كلا من النسقين. نحن نصف الأمور كما تظهر وتتبدى لدى الإنسان الراشد، حيث لا يعمل النسق اللاشعوري لديه، بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا فقط كمرحلة أولية تمهيديه للتنظيم الأعلى. أما بصدد معرفة محتوى هذا النسق، وما علاقته بتطور الفرد، وما دلالاته وأهميته في حالة الحيوانات- فهذه نقاط لا سبيل الي استخلاص استنتاج بشأنها من وصفنا: بل يجب علينا أن نتقصاها بشكل مستقل. علاوة على ذلك، يجب علينا أن نكون مستعدين ان نكتشف في الإنسان شروطاً مرضية محتملة؛ شروطاً يتغير في ضوئها محتوى هذين النسقين وخصائصهما؛ هذا أن لم يتبادلانا فيما بينهما.

## 6. العلاقة بين النسقين

سيكون من الخطأ يقينا أن نتخيل أن النسق اللاشعوري يظل في حالة راحة وركود بينما يقوم النسق القبشعوري بتنفيذ كل العمل للعقلي (النفسي)، أو ان نتخيل أن النسق اللاشعوري هو شيء قد انتهى به الأمر وتوقف استعماله، وقد أصبح عضواً أثرياً، بقية من بقايا عملية التطور. وكذلك سيكون من الخطأ أن نفترض أن التواصل بين النسقين والعلاقة بينهما تنحسر وتقتصر على فعل الكبت، حيث يقوم النسق القبشعوري بإلقاء



ورمي كل ما يزعجه في هاوية النسق اللاشعوري والتخلص منه: بل على العكس من ذلك، فإن النسق اللاشعوري حي باق على قيد الحياة وقادراً على التطور وعلاقاته كثيرة ومتعددة الوجوه مع النسق القبشعوري، من بينها علاقات التعاون أيضاً. وباختصار، يجب علينا أن نقول إن النسق اللاشعوري إنما هو قائم مستمر وممتد متواصل فيما نسميه بمشتقاته، وأن لديه القدرة على أن يمارس تأثيره على أحداث الحياة، ويعمل دائماً وباستمرار على النسق القبشعوري، وحتى يمكن القول أنه، من جانبه، يمكن أن يخضع ويتأثر بالنسق القبشعوري.

إن دراسة مشتقات النسق اللاشعوري ستخيب تماماً توقعاتنا بتقسيم واضح تخطيطياً لنسق عقلي بعينه عن الآخر. سيؤدي هذه الظرف بالتأكيد إلى عدم الرضا بشأن نتائجنا، ومن المرجح أن يتم استخدامها للتشكيك في قيمة طريقتنا للتمييز بين مجموعتين من العمليات العقلية. ومع ذلك، فإن إجابتنا هي أنه ليس لدينا من هدف آخر سوى ترجمة نتائج الملاحظة إلى نظرية، وسوف يكون علينا أن ننكر وجود أي التزام يقع على عاتقنا تحقيق نظرية في أولي محاولتنا من شأنها أن تمتدح نفسها على بساطتها، وفيها يكون كل شيء سهل الإبحار والتنقل. نحن ندافع عن تعقيداتها طالما وجدناها تتناسب مع نتائج الملاحظة، ولا نتخلى عن توقعاتنا كوننا سنسترشد في النهاية بتلك التعقيدات في التعرف على حالة الأمور التي هي في حد ذاتها بسيطة وتجيب، أيضاً، وفي نفس الوقت على كل تعقيدات الواقع.

ومن بين مشتقات الدفعات الغريزية اللاشعورية، التي وصفنا طابعها للتو، هناك البعض منها يحمل في نفسه ويؤحد سمات متضاربة متعاكسة. أن هذه المشتقات تكون، من ناحية، عالية التنظيم، وخالية من أي تناقض ذاتي، وتستفيد من كل مكتسبات النسق الشعوري، وبالكاد يمكن تمييزها من خلال حكمنا العادي عن تشكيلات هذا النسق (الشعوري). ومن ناحية أخرى، تكون لاشعورية وغير قادرة على أن تصبح شعورية. وبالتالي فهي تنتمي وفقاً لصفاتها وخصائصها الي النسق القبشعوري، ولكنها في الواقع الفعلي تنتمي إلى النسق اللاشعوري. يبقى أصلها حاسماً للمصير الذي ستواجهه وتخضع له. قد نقارنها بأولئك الأشخاص مختلطي الأعراق البشرية، الذين يكادون، بوجه عام، أن يشبهوا البيض، لكن أصلهم الملون تنم عنه هذه السمة اللافتة للنظر أو تلك السمة من سماتهم، فيبقون بحكم ذلك منبوذين من المجتمع وغير متمتعين بأي امتياز من امتيازات البيض. الي هذا النوع ومن تلك الطبيعة تكزن **التكوينات التخيلية** (الفانتازية) للأشخاص الأسوياء الطبيعيين، وكذلك للأشخاص العصابين؛ تكون هذه التكوينات التي تعرفنا فيها المراحل الأولية لتكوين كل من الأحلام والأعراض المرضية، والتي تبقى مكبوتة، على الرغم من درجة تنظيمها العالية، وبالتالي لا يمكنها أن تصبح شعورية مدامها مكبوتة. إنها تقترب من الشعور وتبقي على مقربه منه دونما ان تزعجه طالما أنها غير مشحونة بدرجة شديدة من الطاقة، ولكنها لا تلبث أن ترتد على عاقيها للوراء ما أن تتخطي متجاوزة درجة بعينها من هذا الشحن الطاقاتي. إن التكوينات البديلة ما هي الا مشتقات متشابهة وعالية التنظيم بدرجة كبيرة من النسق اللاشعوري؛ لكنها نجحت في اختراق الشعور بفضل بعض العلاقات الارتباطية المفضلة وذلك عندما، على سبيل المثال، تنزامن وتلتحم مع شحنة مضادة صادرة من النسق القبشعوري.

وعندما نتفحص عن كثب وبمزيد من التقصي، في مناسبة أخرى، شروط الطريقة أو الكيفية التي يتم في ضوئها الدخول إلى الشعور، فإن الصعوبات التي تنشأ وتواجهنا هنا ستندل ونجد لها. وعند هذا النقطة، يبدو

أن من المناسب لنا ان نقيم مقابلة بين وجهات نظر سابقة، تصاعدت انطلاقا من وضع اللاشعور في الاعتبار، وبين وجهة النظر التي تقدم وتطرح نفسها انطلاقا من وضع الوعي (الشعور) في الاعتبار. إن الوعي (الشعور) يعتبر مجمل العمليات العقلية كزنها تنتمي إلى مملكة القبشعور. وينشأ الجزء الأكبر من هذه المادة القبشعورية في اللاشعور، ويحمل الخصائص المميزة لمشتقات اللاشعور، ويخضع لعملية رقابة قبل أن يمر عبر الوعي. ويمكن لجزء آخر من النسق القبشعوري أن يصبح شعوريا دون أي رقابة. هنا نسلط الضوء على ضرب من التناقض لفرضية سابقة: انطلاقا من وجهة نظر الكبت، وجدنا لزاما علينا أن نعين موقع الرقابة الذي يعد حاسما للوعي فيما بين النسقين اللاشعوري والقبشعوري. والآن ربما يصبح من الممكن لنا أن نفترض تنصيبا لعمل فعل رقابة يكون قائما فيما بين النسق القبشعوري والنسق الشعوري. ولكن حسنا نفعل هذا دونما اعتبار لصعوبة هذا التعقيد، ولكن إذا سلمنا على العكس بأن كل انتقال من نسق الأعلى منه مباشرة (أي، مع كل تقدم نحو مستوى أرفع من التنظيم العقلي) تقابله رقابة جديدة. كنتيجة طبيعية لذلك، سيكون علينا، ونحن على حق، أن نتجاهل فرضية وجود ضرب من التجدد المستمر من السجلات الجديدة ونظرها جانبا.

وسبب كل هذه الصعوبات هو أن الوعي، الخاصية المميزة الوحيدة للعمليات العقلية المتاحة لنا مباشرة، لا يصلح بأي حال من الأحوال كمعيار لتنصيب الأنساق. وبصرف النظر عن الظروف القائلة بأن كل ما ينتمي للوعي هو ليس دائما في الوعي ولكن يمكنه أن يكون أيضا كامنا بشكل مؤقت، فقد أظهرت لنا الملاحظة أن الكثير مما يشارك ويشاطر النسق القبشعوري خواصه لا يصبح شعوريا؛ و، علاوة على ذلك، سنجد أن الدخول إلى الوعي لهو مقيد ببعض عمليات لفت الانتباه. ومن ثم، فإن الوعي لا يقف في علاقة بسيطة سواء مع الأنساق المختلفة أو مع عملية الكبت. الحقيقة هي أن المكبوت ليس هو وحده الذي يبقى غريبا عن الوعي، ولكن أيضا بعض من الدفعات التي تهيمن وتسيطر على الانا لدينا والتي تشكل بالتالي النقيض الوظيفي الأقوى معارضة للمكبوت. وبقدر ما نتطلع الي أن نشق طريقنا إلى وجهة نظر ميتاسيكولوجية للحياة العقلية، فإن علينا أن نتعلم كيف نحرر أنفسنا من إحساسنا بأهمية هذا العرض الذي تكمن أهميته في "كونه شعوريا". وطالما واصلنا التمسك بهذا العرض، فإننا سنرى أن تعميماتنا تغزوها الاستثناءات بانتظام. وسنرى أن مشتقات النسق القبشعوري تدخل الوعي كتكوينات بديلة وكأعراض مرضية، تكون قد خضعت بشكل عام لتشويهات كبيرة في مقابل النسق اللاشعوري، حتى على الرغم من احتفاظها بالعديد من الخصائص التي تستدعي الكبت وتدعو إليه. سنجد أن العديد من التكوينات القبشعورية تظل وتبقى لاشعورية مع انه هناك ما يدعونا الي الحكم بأن طبيعتها تسمح لها بلا حرج أن تصبح شعورية. وأرجح الظن أن ما يعتد به ويؤكد نفسه هو أن تكون الجاذبية الأقوى، في هذه الحالة، للنسق اللاشعوري. وسنجد أنفسنا مندفعين نحو البحث لا عن الاختلاف والتمييز الأكثر أهمية بين النسقين الشعوري والقبشعوري، ولكن فيما بين النسقين القبشعوري واللاشعوري. فعلى تخوم النسق القبشعوري، توجد الرقابة لتدفع اللاشعور وترده الي حيث أتى، غير أن مشتقاته يمكنها التغلب على هذه الرقابة وتتحاشها، وترقي محققة درجة عالية من التنظيم، وتبلغ في النسق القبشعوري درجة يعينها من الشدة في الشحن الطاقاتي؛ ومع ذلك، فإنه متي ما حدث هذا للمشتقات وأرادت أن تفرض نفسها لاختراق الشعور، حتى يتم التعرف عليها ويكتشف أمرها كونها مشتقات من النسق اللاشعوري، ويتم كبتها من جديد وردها عند الحد الجديدة بفعل الرقابة بين القبشعور والشعور. وهكذا فإن الرقابة الاولي تعمل عملها

ضد اللاشعور نفسه، بينما تعمل الرقابة الثانية عملها ضد المشتقات القبشعورية. وعلى هذا فقد يكون في استطاعتنا أن نفترض أن الرقابة قد تقدمت خطوة الي الأمام في سياق التطور الفردي.

في العلاج التحليلي النفسي تم إثبات وجود الرقابة الثانية، المتوقعة بين النسقين القبشعوري والشعوري، بما لا يدع مجالاً للشك. نحن نطلب من المريض أن يُنتج بحرية كمية من مشتقات النسق اللاشعوري، وتواصل الي ذلك نلزمه بأن يتغلب على حواجز الرقابة واعتراضاتها التي تجابه بها هذه التشكيلات القبشعورية وتحول دون أن تصبح شعورية، وبإسقاط هذه الرقابة والانتصار عليها، نفتح الطريق لإلغاء الكبت الذي هو من جراء الرقابة السابقة. والي هذا دعونا نضيف الملاحظة التالية التي مفادها أن وجود الرقابة بين النسق القبشعوري والنسق الشعوري يُعلمنا أن الوصول إلى الوعي ليس مجرد فعل من أفعال الإدراك المعرفي، ولكن في أرجح الظن ربما يكون أيضاً هو ضرباً من الشحن الزائد أو المضاعف، وهو ضرباً من تقدم جديد في التنظيم العقلي.

دعونا نوجه انتباهنا إلى العلاقات القائمة بين النسق اللاشعوري والنسقين الآخرين، ليس كثيراً بهدف الوصول الي نقاط جديدة، بل كيلا يغيب عنا ما هو بديهي ويعتبر من أهم الميزات وأكثر الملامح بروزاً. إن في جذور النشاط الغريزي، تتصل الأنساق مع بعضها البعض بأبسط طريقة ممكنة وعلى أوسع نحو: فبعض من هذه العمليات التي يتم تنبيهها هنا عند جذور هذا النشاط تبدأ تمر عبر النسق اللاشعوري، كمرحلة تحضيرية، وتصل إلى أعلى نقاط تشكلها النفسي في النسق الشعوري، بينما يتم احتجاز بعض آخر في النسق اللاشعوري. لكن النسق اللاشعوري يتأثر أيضاً بالخبرات الأتية من الإدراك الخارجي. وبصورة عامة، عادة ما تبقي جميع السبل والمسارات من الادراك الي النسق اللاشعوري مفتوحة سالكة؛ فقط تلك السبل التي تنطلق من اللاشعور لتصل الي ما هو أبعد هي من يتم حجبها بفعل الكبت.

من اللافت للنظر جداً أن النسق اللاشعوري لشخص ما يمكن أن يتفاعل ويتجاوب مع نظيره لشخص آخر، دونما إشراك النسق الشعوري على الاطلاق. وهذا أمر يستحق التحقيق أكثر والاستقصاء عن كئب، لا سيما بالنظر إلى ما إذا كان في المستطاع نفي وإبعاد كل نشاط قبشعوري كعامل في تحقيق ذلك وحدثه؛ ولكن لأغراض الوصف، فإن الحقيقة لا تقبل الجدل.

إن محتوى النسق القبشعوري (او الشعوري) إنما يستقي ويشتق جزئياً من الحياة الغريزية (من خلال وساطة اللاشعور)، وجزئياً من الإدراك. ومن المشكوك فيه معرفة الي أي مدى يمكن لعمليات النسق القبشعوري أن تمارس تأثيراً مباشراً على اللاشعور؛ غالباً ما يكشف تقصي الحالات المرضية عن استقلالية اللاشعور عن كل تأثير وعن عدم القابلية للتأثير على جزء اللاشعور. يعد الاختلاف الكامل والتفارق التام في ميول واتجاهات كل من النسقين، والانشقاق (الفصل والقطيعة) الكامل بين النسقين، سمة عامة من سمات للمرض. ومع ذلك، فإن العلاج التحليلي يعتمد على التأثير الذي يمارسه الشعور على اللاشعور، وقد تبين أيضاً، على كل حال، أن النتيجة، مهما كانت مجهدة صعبة، هي ليست بالأمر المستحيل. إن مشتقات النسق اللاشعوري، التي تعمل كوسيط بين النسقين، تعمل علي فتح السبيل، كما قلنا سابقاً، نحو تحقيق ذلك وإنجازه. ولكن ربما قد نفترض جيداً أن التغيير المؤثر الذي يتم إجراؤه تلقائياً في النسق اللاشعوري من جانب الشعور إنما هو عملية صعبة ولا تتم الا ببطء.

يمكن إقامة ضربا من التعاون بين دفعة قبشعورية ودفعة لاشعورية، حتى ولو كانت هذه الأخيرة تحت فعل كبت شديد للغاية، وذلك إذا ما كان الموقف يسمح للدفعة اللاشعورية أن تعمل عملها في انسجام مع أحد الميول السائدة. وفي هذه الحالة يتم إزالة الكبت وإزاحته، ويتم تعرف النشاط المكبوت وقبوله على أنه تعزيزا للنشاط الذي يدنو من الأنا. وفي ضوء هذه الكوكبة وحدها، يصبح اللاشعور منسجما مع الأنا، ومتماشيا مع الانا، دون أن يحدث أي تغيير فيما يتعلق بالكبت على أي نحو كان. إن تأثير اللاشعور في هذا التعاون يكون فاعلا لا ألبس فيه. فالميول التي يتم تعزيزها عن نفسها وتسلك غير المسلك الذي تسلكه الميول العادية، وتفسح المجال أمام إمكانية عمل إنجازات تتسم فعلا بصفة الكمال، وتُظهر حيال التناقضات المماثلة ضربا من المقاومة المشابهة لتلك التي تبديها الأعراض الوسواسية.

وبوسعنا أن نجري مقارنة بين محتوى النسق اللاشعوري مع السكان الأصليين للمملكة العقلية. فإذا كانت التكوينات العقلية الموروثة موجودة في الإنسان- شبيهة الي حد ما للغريزة في الحيوانات- فإنها تشكل نواة اللاشعور. والي هذه النواة يضاف فيما بعد كل ما تم التخلص منه وإبعاده لعدم نفعه أثناء نمو الطفولة وتطورها، وما ليس بحاجة الي أن يكون من طبيعة مختلفة مغايرة لطبيعة ما هو موروث. إن الانقسام الحاد والنهائي بين محتوى النسقين لا يحدث، كقاعدة عامة، الا في سن البلوغ.

## 7- تعرف اللاشعور

ما تقدم قوله حتى الآن يكاد يمثل كل ما قلناه عن هذا النسق في جملة الملاحظات السابقة بخصوص النسق اللاشعوري، طالما أن أفكارنا عن هذا النسق اللاشعوري لم نستمدتها الا من خلال معرفتنا بحياة-الحلم والأعصاب الطرحية. وبديهي إن تكون أفكارنا يقينا هي ليست بكثيرة، ويلفها في بعض نواحيها ضربا من الانطباع بالغموض واللبس؛ لا سيما إننا نبحت عبثا عن إمكانية استحضار اللاشعور في أي اتصال، أو تصنيفه، تحت أي من العناوين التي نألفها بالفعل. إن تحليل أي من تلك الانفعالات التي يسميها الأطباء النفسيون بالأعصاب النفسية النرجسية هو وحده من يزودنا بالمقدمة المنطقية للتصورات التي من خلالها سيتم وضع اللاشعور الملغز الغامض ليكون في متناول أيدينا بطريقة ملموسة، إن جاز التعبير.

ومنذ أن قام كارل ابراهام (1908) بنشر عمله- الذي حاول أن يعزو لي فعل التحريض للقيام به- ونحن نحاول تعريف العته المبكر عند كريبيلين (الفصام عند بلويلر) على أساس الكيفية التي يتصرف بها حيال التعارض (ذلك الزوج من الأضداد) المكوّن من الانا وموضوعها. فبالنسبة للأعصاب الطرحية (القلق الهستيرى والهستيريا التحولية والعصاب الوسواسي) لم يكن هناك من شيء يستوقف انتباهنا ويعطي أهمية خاصة لهذه الأضداد (المتعارضة). وللحق، نحن نعلم، أن الاحباط من جانب الموضوع يتسبب في اندلاع العصاب واشتعاله، وأن العصاب ينطوي على ضرب من التخلي عن الموضوع الواقعي والعزوف عنه؛ كما أن طاقة الليبيدو الذي تم سحبها من الموضوع الواقعي تتقلب مرتدة بداية الي موضوع متخيل (في فانتازية)

ثم بعد ذلك، تترد الي ذلك الموضوع المكبوت (من ضرب من الطي والانقلاب للداخل). غير أن شحنة- الموضوع في هذه الأعصبة تبقي بوجه عام تحتفظ بقدر كبير من الطاقة، وقد أرغنا المزيد من التمحيص الدقيق والتحليل لعمليات الكبت على التسليم بأن شحن- الموضوع يبقي يستمر قائما في النسق اللاشعوري رغما عن الكبت- أو بالحري يبقي يستمر جراء الكبت. وفي الواقع، فإن القدرة على الطرح (التحويل)، والتي نستخدمها وننتفع بها لأعراض علاجية في هذه الاعصبة، تفترض مسبقاً أن يبقي شحن-للموضوع بلا مساس.

ومن ناحية أخرى، فإننا، في حالة الفصام، قد اضطررنا الي أن نفترض فرضية أن الليبيدو الذي تم سحبه، بعد عملية الكبت، لا ينشد ولا يبحث عن موضوع جديد. بل ينكفي يتراجع مرتدا في الانا؛ هذا يعني القول، أنه في هذه الحالة (في حالة الفصام) يتم التخلي عن شحنات-الموضوع وهجران الموضوعات وتقوم حالة لا موضوعاتية بدائية من النرجسية الأولية. إن عدم قدرة هؤلاء المرضى على الطرح (التحويل)- بقدر ما تمتد عملية المرض وتستفحل- تجعل من المساعي العلاجية المبذولة لهم مستعصية ولا تحقق مبتغاها. وتجعلهم يعزفون عن العالم الخارجي وينكرونه، ويتبدى لديهم مظاهر شحن زائد لأناهم بطريقة مفرطة، وتكون النتيجة النهائية حالة من اللامبالاة الكاملة والبلادة- يبدو أن كل هذه الملامح الكلينيكية وكأنها تنسجم وتكون في اتفاق ممتاز مع الفرضية القائلة بالتخلي عن الشحن- الموضوعاتي (ليس لديهم علاقات بالموضوع وانغماس في حالة من النرجسية الأولية اللا- موضوعاتية). وفيما يتعلق بالعلاقة بين النسقين النفسيين بعضهما البعض، فقد صُدم جميع الملاحظين بما كشف عنه التحليل النفسي من أن هناك الكثير مما يتم التعبير عنه شعوريا لدي مرضي الفصام (الأعصبة النرجسية) لا يوجد لدي مرضي الأعصبة الطرحية الا فقط في النسق اللاشعوري. ولكن في البداية لم تتمكن من إقامة أي علاقة واضحة بين علاقة الأنا-الموضوع وعلاقات الشعور.

وعلي نحو تلقائي غير متوقعة يبدو أننا قد وصلنا الي ما نسعى إليه وما ننشده. نحن نلحظ لدي مرضي الفصام، وخاصة في المراحل المبكرة الأكثر غني بالإفادة- عددًا من التغييرات في الكلام (التحريفات اللغوية)، البعض منها يستحق النظر إليه ودراسته من وجهة نظر بعينها. فغالبًا ما يولي المريض اهتمامًا خاصًا لطريقته في التعبير عن نفسه، والتي تغدو "متكلفة" و "متحذقة". إذ يخضع بناء الجمل لاضطراب غريب وخلل في التنظيم ويكون في حالة من التفكك، مما يجعل من هذه الجمل والعبارات غير مفهومة لنا الي الحد ال ذي يجعل من ملاحظات المريض تبدو هي الأخرى بلا معني. وغالبًا ما يظهر في محتوى كلام المريض الفصامي أن هناك ثمة علاقة بعينها مع أعضاء الجسم أو أن التعصبيات الجسدية تكون جد بارزة ومهيمنة وتحتل مكان الصدارة. وقد يكون هذا مرتبطاً بملاحظة أخرى، هي تحديداً، أنه في مثل هذه الأعراض المرضية لمرضي الفصام، والتي يمكن مقارنتها بالتشكيلات-البديلة لدي مرضي الهستيريا أو العصاب الوسواسي، سنجد أن العلاقة بين المادة البديلة والمادة المكبوتة تنصف، مع ذلك، بجملة من الخصائص التي سنفاجئنا ونثير دهشتنا فيما لو أنها كانت قائمة موجودة في هذين الشكليين من العصابين المذكورين.

لقد وضع الدكتور فيكتور توسك Dr. Viktor Tausk، من فيينا، تحت تصرفي بعض الملاحظات التي كان قد توصل اليها بشأن المراحل الأولى من مرض الفصام، والتي تنطوي على قيمة خاصة حيث يكون المريض نفسه فيها قلقا وهو يشرح أقواله ويفسرها بشكل إضافي أكثر. سأعرض هنا لاثنتين من الأمثلة لتوضيح

الأطروحة التي أرغب في الدفاع عنها، وليس لدي أدنى شك في أن كل ملاحظ يمكنه بسهولة الوصول الى الكثير من هذه المواد.

كانت أحدي مريضات د. توسك فتاة قد حضرت الي العيادة عقب مشاجرة مع عشيقها، راحت تشتكي من أن عينيها ليست على ما يرام، إنها مقلوبة ملتوية. لقد أوضحت هذا بنفسها من خلال نطق جمل مصاغة بشكل صحيح، في حين انهالت بسلسلة من الخطب اللاذعة والمآخذ ضد حبيبها: "إنها لا تستطيع أن تفهمه على الإطلاق، كان يبدو في كل مرة مختلفاً؛ إنه منافق مغرور، قلاب عيون، كان يقبل لها عينيها؛ الآن عيناها لم تعد هي عيناها؛ الآن تري العالم بعينون مختلفة".

إن ملاحظات المريض حول تصريحها ومنطوقها غير المفهوم تنطوي على قيمة تعادل قيمة التحليل النفسي، لأنها تحتوي المرادف للكلمات الأصلية التي يتم التعبير عنها عادة في شكل مفهوم. وفي نفس الوقت تشرح منطوقاتها معنى ونشأة تكوين الكلام في الفصام. وبالالتفاق مع توسك، أود هنا أن أؤكد على النقطة التي مفادها أن العلاقة بالعضو الجسدي (العين) قد اغتصبت وانتحلت مكان محتوى الفكر بأكمله. إن كلام المريض الفصامي يُظهر خاصية التوهم المرضي: فقد أصبح "كلام عضو".

وثمة ملاحظة ثانية من نفس المريضة: "كانت واقفة في الكنيسة، وفجأة شعرت بقشعريرة، كان عليها أن تغير من وضعيتها، ولكأن أحدهم كان قد وضعها في وضعية بعينها، وكأنها كانت قد تم وضعها في وضعية بعينها".

يتبع هذا التحليل سلسلة جديدة من اللوم ضد عشيقها: "لقد كان شخصاً عادياً تماماً، وجعلها أيضاً شخصية عادية، رغم أنها سليلة أسرة عريقة. لقد جعلها مثله مشابهة له من خلال جعلها تعتقد أنه أعلي منها مرتبة ومتفوق عليها؛ الآن هي قد أصبحت مثله، لأنها اعتقدت أنها ستكون أفضل لو كانت مثله؛ لقد أعطى انطباعاً خاطئاً عن وضعيته، الآن هي مثله تماماً (تعيين أو توحد!)، لقد غير من وضعيتها".

يلاحظ توسك أن الحركة التي من خلالها "غيرت وضعيتها" دعت إلى فكرة "تشويه وسوء تمثيل وضعيتها" دعت الي التعيين والتوحد مع الحبيب. مرة أخرى، أود أن ألفت الانتباه إلى الطريقة التي من خلالها يتم السيطرة على مسار الفكر بأكمله من قبل هذا العنصر الذي يتضمن محتواه تعصبات بدنية (أو بالحري، إحساس وشعور بالبدن). في الحالة الأولى، في حالة المريض الهستيرى، يتحكم العرض الهستيرى على نحو تشنجي تقليب عينيها وإدارة حركاتها؛ وفي الحالة الثانية، كان التنفيذ الفعلي لحركات الهزات، بدلا من يكون لديها الدافع للحركة الاهتزازية أو الإحساس بأن تكون تهتز. ولن يكون هذا، في كلتا الحالتين، مصحوباً بأي أفكار شعورية، لا ولن تكون المريضة بقادرة بعد ذلك على التعبير عن هكذا أفكار.

حتى الآن، توضح هاتان الملاحظتان ما نسميه "لغة التوهم المرضي" أو "كلام العضو". لكنهما يوضحان ويلمحان أيضاً إلى شيء ما يبدو لنا أكثر أهمية، أي إلى حالة أخرى من الأشياء التي لدينا أمثلة عنها لا حصر لها (على سبيل المثال، في الحالات المذكورة في دراسة بلويلر (Pleuler) والتي يمكن اختزالها إلى صيغة محددة. إن الكلمات، في مرض الفصام، تخضع لنفس العملية التي تصنع صور- الحلم وتخرجها من أفكار-

الحلم، تلك العملية التي نسميها "العملية العقلية الأولية". إنها تخضع للتكثيف، وبواسطة الإزاحة تنقل شحناتها الطاقاتية من بعضها الي البعض دون توقف؛ قد تمتد العملية إلى حد أن كلمة واحدة مفردة، والتي تعتبر مناسبة بشكل خاص بسبب علاقاتها العديدة، يمكن أن تمثل سلسلة كاملة من الأفكار. وفرت أعمال بلويلر ويونج وطلابهما مواد وفيرة تدعم تحديدا هذه الفرضية نفسها.

وقبل أن نستخلص أي استنتاج من مثل هذه الانطباعات، دعونا نفكر أكثر في الفروق والاختلافات الدقيقة بين الفكرة- البديلة في مرض الفصام وفي مرض الهستيريا، وفي مرض العصاب الوسواسي- اختلافات دقيقة، وهذا حقيقي. وأن كان ينتج عنها تأثيرا غريبا للغاية. إن هناك مريض أراقبه حاليًا وأضعه تحت الملاحظة قد ترك نفسه ينسحب من جميع اهتمامات الحياة بسبب الحالة غير الصحية والمرضية لبشرة وجهه. يعلن ويوضح أن لديه رؤوس سوداء (بثورا) وأن لديه ثقوبًا عميقة (ثقوبا) في وجهه يلاحظها الجميع. لقد أظهر التحليل أنه يمارس عقدة الإخصاء لديه على جلده. في البداية كان منشغلاً بهذه الرؤوس السوداء (البثور) دون أي شكوك؛ لقد كان عصره لها يمنحه كثيرا من المتعة، لأنه، كما قال، ثمة شيء ما يندفع ليخرج منها عندما يعصرها. ثم بدأ يداخله اعتقاد أنه حيثما يقتلع بثرا تظهر فجوة عميقة، فراح يلوم نفسه أشد اللوم لأنه شوه ودمر جلده بصورة نهائية، من كثرة عبثه ولعبه المستمر بيده في جلد". ومن الواضح أن الضغط والعصر على محتوى الرؤوس السوداء (البثور) هو بديل للاستمنا باليد. والفجوة التي تظهر بعد ذلك نتيجة لفعلة المذنب هي العضو التناسلي الأنثوي، أي أنه يمثل تحقيق للتهديد بالخصاء (أو الفانتازية التي تمثله) الناجم عن الاستمنا باليد. هذا التكوين- البديل، على الرغم من طابعه التوهمي للمرض، يمكن اعتباره يشابه عرضا تحوليا هستيريا؛ ومع ذلك، لدينا شعور بأنه يجب أن يكون هناك شيء مختلفا فيه، وأننا لا نستطيع تصديق مثل هذا التكوين البديل في حالة من الهستيريا، حتى من أن نقول ما كنه هذا الاختلاف وفيما يكمن. إن من الصعب علي المريض الهستيريا أن يحسب أن مثل تلك الفجوة الصغيرة التي هي بحجم مسام الجلد قد يستخدمها تقريبا لتمثل رمزا للمهبل، وأن كان يقارنه على أية حال مع كل موضوع يمكن تخيله وقادرا على إحاطة وتضمين مساحة جوفاء. علاوة على ذلك، نحن نعتقد أيضا أن تعدد هذه التجاويف الصغيرة وكثرتها سيمنعه من استخدامها كبديل للعضو التناسلي الأنثوي. وينطبق الأمر نفسه على حالة مريض شاب قد أبلغ عنه د. توسك Tausk قبل بضع سنوات أما جمعية فيينا للتحليل النفسي. فقد كان هذا المريض يتصرف في نواح أخرى كما لو كان يعاني من العصاب الوسواسي؛ كان يقضي ساعات حتى يرتدي الملابس، وهكذا دواليك. ومع ذلك، كان الملمح اللافت للنظر للحالة هو أنه كان قادراً على يدلي بمعنى ضروب كفوفه دون أي مقاومة. على سبيل المثال، إنه بينما كان يشد جواربه ويرتديها، خطرت له فكرة جد مزعجة مفادها أنه يجب عليه أن يفصل غرز الحياكة وينزعها، أي الثقوب وكان كل ثقب بالنسبة له يمثل رمزاً لفتحة العضو التناسلي للمرأة (فرجها). هنا نحن مرة أخرى أمام شيء لا يمكننا أن نعتمد بشأنه علي مريض يعاني من عصاب وسواسي؛ كان هناك مريضا من هذا النوع كان قد لاحظه د. ر. رايتلر R. Reitler (مريض كان يعاني من أنه يمضي وقتنا طويلا في ارتدائه جواربه)، وكان قد وصل، بعد أن تم التغلب علي المقاومات، الي تفسير ذلك بأن كان قدم المرض يشير رمزيا الي العضو الذكري، أن فعل شد الجوارب وارتدائها يشير رمزيا الي فعل الاستمنا، وأنه كان يقوم علي نحو متواصل مستمر بفعل لبس الجوارب وخلعا حتي يتسنى له أن يستكمل، من جهة، تمثيل فعل الاستمنا، ويقوم، من جهة أخرى، بتمثيل الغاء فعل الاستمنا والتراجع عنه.

إذا سألنا أنفسنا عما يضيف على التكوين البديل والعرض في الفصام طابع الغرابة والباعث على الدهشة، فسوف ينتهي بنا الأمر أخيراً إلى فهم أن مرد ذلك الي غلبة علاقة- الكلمة على علاقة الشيء. فبين عصر الرؤوس السوداء (البثور) وقذف العضو الذكري لا يوجد الا تشابه جد طفيف، ويبقى التشابه أقل بين المسام الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى في الجلد والمهبل؛ ولكن في الحالة الأولى، في كلتا الحالتين، ثمة شيء يُقذف خارجياً، بينما في الحالة الثانية، يكون القول الساخر، "الخرم هو خرم"، **صحيح حرفياً**. إن التماثل بين الاثنين عندما يتم التعبير بالكلمات، وليس تشابه الأشياء المعنية المشار إليها، هو ما يملي عملية الاستبدال. وعندما لا يتطابق الاثنان- الكلمة والشيء- فإن التكوين البديل في مرض الفصام ينحرف ويشذ عن ذلك الذي يكون في الأعصاب الطرحية.

دعونا نضع هذه الاعتبارات في تواصل وارتباط مع الاستنتاج القائل بأنه في مرض الفصام يتم التخلي عن الشحنات-الموضوعاتية. آنذاك يتعين علينا أن نقوم بتعديل هذه الفرضية وأن نقول: إن شحن أفكار الكلمات المماثلة للموضوعات والتي تترجم عنها يبقى قائماً. إن ما يمكننا تسميته بالفكرة الشعورية للموضوع يمكن لها ان تنتشر الآن وتنقسم الي **فكرة (تمثل) كلمة (فكرة لفظية) وفكرة (تمثل) شيء (فكرة ملموسة)**؛ ويمكن الأخير (تمثل الشيء) في الشحن الطاقاتي، إن لم يكن يكمن في الشحن الطاقاتي للصور-الذكرويه المباشرة للشيء، فعلى الأقل يكمن في الشحن الطاقاتي لأثار-ذكرويه بعيدة هي مستمدة منها. وما يذهلنا جميعاً في الحال هو أننا نعرف الآن ما هو الفرق بين فكرة شعورية وفكرة لا شعورية. إن الاثنين هما ليس، كما افترضنا، بسجلين مختلفين لنفس المحتوى و متموقعان في أجزاء مختلفة من العقل، لا ولا هما مع ذلك بحالتين وظيفيتين مختلفتين للشحن الطاقاتي في نفس الجزء؛ لكن الفكرة الشعورية تتضمن الفكرة الملموسة العيانية إضافة إلى **الفكرة-اللفظية (التمثل اللفظي)** التي تتماثل معها وتترجم عنه، في حين أن الفكرة اللاشعورية هي **فكرة-الشيء (تمثل الشيء)** وحده. إن النسق اللاشعوري يتضمن شحنات- الشيء **(تمثلات-الشيء)** للموضوعات، وهي شحنات- الموضوع الأولي والحقيقية؛ وينشأ النسق القبشعوري في ضرب من الشحن-المفرط الزائد لهذه الفكرة العيانية عن طريق ربطها بالأفكار اللفظية للكلمات المماثلة لها والتي تترجم عنها. قد نفترض أن مثل هذه الشحن-المفرط هو الذي يؤدي إلى ضرب من التنظيم العالي في العقل ويجعل من الممكن للعملية الأولية أن تخلفها العملية الثانوية التي تهيمن على النسق القبشعوري. الآن، أيضاً، نحن في وضعية تسمح لنا أن نقرر على وجه الدقة أن ما ينكره الكبت في الأعصاب الطرحية إنما هي الفكرة المرفوضة-أي تحديداً، ينكر ترجمة الفكرة إلى كلمات مما يجعلها تبقى مرتبطة بالموضوع. إن الفكرة التي لم يتم وضعها في كلمات أو فعل عقلي لكونها لم تتلقي شحنات زائداً، فإنها تبقى آنذاك في اللاشعور في حالة كبت.

ويسعني أن ألفت الانتباه إلى حقيقة أننا قد حصلنا بالفعل في وقت مبكر جداً على البصيرة (الرؤية) التي تمكننا اليوم من فهم واحدة من أكثر الخصائص المميزة للفصام. ففي الصفحات الأخيرة من كتاب تفسير الأحلام Die Traumdeutung، الذي تم نشره في عام 1900، تم عرض الأطروحة القائلة بأن عمليات-التفكير، أي تلك الأفعال العقلية المشحونة والتي تكون بعيدة عن الإدراك، هي في حد ذاتها خالية من الجودة وتكون لا شعورية، وتستمد قدرتها على الدخول في الشعور من خلال الارتباط فقط مع بقايا إدراكات أو تصورات-الكلمة. إن الأفكار اللفظية **(التمثلات اللفظية)**، من جانبها، تكون مستمدة من إدراكات أو تصورات المعني بنفس طريقة الأفكار الملموسة؛ لذلك فإن السؤال المطروح هو لماذا لا يمكن أن تصبح أفكار الموضوعات



(تمثيلات الموضوعات) شعورية من خلال وكالة خاصة مخلفات وبقايا الإدراك الخاصة بها. لكن ربما يستمر الفكر في الأنساق البعيدة جداً عن بقايا الإدراك الأصلية لدرجة أنه لم تعد يحتفظ بأي من صفات هذه البقايا، لذلك فإنه حتى يتسنى لمحتوي أنساق- الفكر أن تصبح شعورية، فإنها تحتاج أن يتم تعزيزها بصفات وخصائص جديدة. إضافة إلى ذلك، فإن ربطها بالكلمات قد يضيف صفة حتى على الشحنات التي لا يمكن لها أن تحمل معها أي صفة مستمدة من الإدراكات نفسها، وذلك لأن هذه الشحنات لا تمثل إلا العلاقات بين أفكار الموضوعات (تمثيلات الموضوعات). ومثل هذه العلاقات، التي لا يمكن فهمها إلا من خلال الكلمات، تشكل أحد أهم أجزاء عمليات تفكيرنا. نحن نفهم أن ربطها بالأفكار اللفظية (التمثيلات اللفظية) لا يزال غير متماثل مع جعلها شعورية بالفعل، ولكن فقط مع إمكانية حدوث هذا؛ ومن ثم، فهي خاصية مميزة من خصائص النسق القبشعوري دون غيره من الأنساق. وع ذلك، يمكننا أن نلاحظ الآن أنه من خلال هذه المناقشات قد ابتعدنا عن موضوعنا الواقعي ووجدنا أنفسنا وسط مشاكل تتعلق بالنسق القبشعوري والنسق الشعوري، مع إنه كان الأجدر بنا، لسبب جد وجيه، أن نستبقها لنعالجها على حدة.

عند التفكير في مرض الفصام، ثمة ضرب من التشكك الذي لا نتطرق إليه هنا إلا ونحن بصد ما يبدو أنه حتمي ولا غنى عنه للمعرفة العامة بالنسق اللاشعوري؛ ويتعين أن ينتابنا الشك بشأن ما إذا كانت العملية المسماة هنا بالكبت تمت بأي صلة ولها صفات مشتركة مع الكبت الذي يحدث في الأعصاب الطرحية. وعليه حال من الأحوال، يجب تعديل الصيغة التي تقول إن الكبت ما هو إلا عملية تحدث فيما بين النسق اللاشعوري والنسق القبشعوري (أو الشعوري)، وتؤدي إلى حجب المادة المكبوتة ومنعها من الدخول الي الشعور، من أجل أن يتم استيعاب حالة العته أو الخرف المبكر وانفعالات نرجسية أخرى. لكن محاولة الأنا ومساها للهروب، والتي تعبر عن نفسها وتتجلي في سحب الشحنة الطاقائية الشعورية، تظل تبقى مع ذلك عاملاً مشتركاً. يوضح لنا تأملنا الفكري الأكثر سطحية كيف تتم محاولة الهروب هذه بشكل جذري وشامل، أي هروب الأنا، في الأعصاب النرجسية.

إذا كانت هذه الرحلة، في مرض الفصام، تتكون من سحب الشحنة الغريزية من تلك النقاط التي تمثل الفكرة اللاشعورية للموضوع، فقد يبدو من الغريب أن هذا الجزء من نفس الفكرة التي ينتمي إلى النسق القبشعوري- الأفكار اللفظية (التمثيلات اللفظية) التي تترجم عنها وتمثلها- إنما يجب أن تخضع، على العكس من ذلك، لشحن أكثر شدة. قد يحق لنا بالحري أن نتوقع أن تكون الفكرة اللفظية (التمثل اللفظي)، كونها (بصفتها) الجزء القبشعوري، هي المرشح لتحمل صدمة الكبت الأولي، والاي يعود هناك من سبيل وأنه سيكون سدا منيعاً تماماً من الشحن الطاقاتي بعد أن يكون الكبت قد استمر متواصلاً حتى شمل الأفكار العيانية (التمثيلات العيانية الملموسة) اللاشعورية. إن هذه، بكل تأكيد، نقطة يصعب فهمه. إن الحل الذي يفرض نفسه للخروج من هذه المعضلة هو أن شحنة-الفكرة اللفظية (التمثل اللفظي) لا تنتمي الي فعل الكبت، ولكن تمثل على العكس من ذلك أولي محاولات التصحيح للشفاء أو التعافي التي تهيمن بوضوح على الصورة الكلينيكية لمرض الفصام. تهدف هذه المساعي إلى استعادة الموضوعات المفقودة، وقد يكون من الأفضل لهذا الغرض أن تشق طريقها إلى الموضوع عن طريق الكلمة التي تنتمي إليه؛ ومع ذلك، يجب علي المرضي أن يرضوا أنفسهم بالكلمات في مكان الأشياء. أن نشاطنا العقلي يجب أن يتحرك، بشكل عام، في أحد اتجاهين متعاكسين: إما أنه يبدأ من الغرائز ويمر عبر النسق اللاشعوري ليصل الي العمل الفكري الشعوري، أو، إما أن يمر، بضرب من الإثارة

والحماس من الخارج، عبر النسق الشعوري والنسق القبشعوري حتى يصل إلى شحنة الانا اللاشعورية والشحنة اللاشعورية لموضوعاتها. إن هذه الطريقة الثانية هي التي يجب أن تبقى سالكة وواضحة، على الرغم من حدوث الكبت، وأن تبقى مفتوحة أمام مساعي العصاب لاستعادة موضوعاته. وعندما نفكر في الأمور تفكيراً مجرداً، فإننا نجازف ونخاطر بإهمال علاقات الكلمات بالأفكار العيانية (التمثلات العيانية) اللاشعورية، أفكار ملموسة، ويجب الاعتراف بأن التعبير عن فلسفتنا ومحتواها يبدأ في اكتساب تشابه غير مرحب به مع طريقة التفكير المريض الفصامي. ومن ناحية أخرى، قد نحاول وصف الطريقة التي يفكر بها المريض الفصامي بالقول إنه يعامل الأشياء العيانية الملموسة كما لو كانت أشياء مجردة.

إذا فهمنا حقاً طبيعة النسق اللاشعوري وحددنا بشكل صحيح الفرق والاختلاف بين الفكرة اللاشعورية التمثل (اللاشعوري) والفكرة القبشعورية (التمثل القبشعوري)، فإن من المتوقع أن تعيدنا الأبحاث التي يمكننا ان نقوم بها من منطلقات مغايرة تماماً بالضرورة الي نفس الاستنتاجات.

انتهي المقال